الزواج السعيد

بين حسن الاختيار وعشرة الأخيار

بقلم / حاتم إبراهيم سلامة

الزواج السعيد

بين

حسن الاختيار وعشرة الأخيار

بقلم / حاتم إبراهيم سلامة

إهداء

إلى والدي رحمه الله الذي اختار لنا أمًا ذات نسب ودين، وإلى أمي أمد الله حياتها التي قبلت رجلا يتمتع بكل سمات الرجولة والشرف والمروءة والأخلاق العالية.. إليهما ومن تجربتهما كان هذا الكتاب وكانت هذه السطور، التي ترشد الحيارى للطريق الذي يحصلون فيه على السعادة ويقيمون بيوتا هانئة.

مقدمة

تُعد قضية البيت المسلم من أخطر القضايا التي لها دورها الفعال وأثرها الكبير في نهضة المجتمع المسلم، وقيام أركانه على الفضيلة والقيم وتعاليم الدين الراشدة، ولا نبالغ إن قلنا: **إننا نعلق على البيت المسلم كل الآمال في إيجاد جيل الصحوة المنشود** الذي يحيي بعث هذه الأمة من جديد، ويحمل على كاهله أسباب عزها ومجدها وتميزها ونهضتها.

فنحن نريد جيلا ينشأ على القرآن الكريم وتعاليم نبينا الكريم ﷺ عليه ، فيغير ملامح الحياة، ويعيد صياغة المجتمع ويده إلى الإسلام بعد أن تمرد عليه.

بل إن الواقع الذي نعانيه، والمحن التي تعيشها بلاد الإسلام، والمؤامرات التي تحاك بأمتنا ليل نهار، **لن يرد كل هذا النكال إلا جيل جديد تسلح بقيم الإسلام وتربى على أخلاقه العالية** وتجمل بمعالم الرجولة التي يصبغ بها الإسلام أتباعه.

نريد جيلا يخرج إلى الدنيا يعتز بإيمانه وانتسابه لهذا الدين، ويفخر على الدنيا قاطبة بتمسكه بقيمه وإقامته لشرعه، مؤمنا أن كيانه الحقيقي وبقاءه الأكيد، لا يتحقق إلا في ظل هذا الدين، والتمسك المتين بأخلاقه وهديه ودعوته، التي جلبت سعادة الإنسان وأثمرت هناء البشر.

نحن نريد جيلا ينشأ بين أحضان أبوين مسلمين، **يؤمنان ويدركان أن حياتهما ليست للذة والمتعة، بقدر ما هي حياة تعمل على تأصيل معنى الإسلام في المجتمع**، وإحياء صورة الأسرة المسلمة من خلال التربية الراشدة والسلوك القويم، ولهذا كانت صفحات هذه الرسالة تتحدث عن الزواج بين حسن الاختيار وعشرة الأخيار، وكونه اللبنة الأولى في تكوين البيت المسلم، والعامل الأكبر في تحقيق هدفه كبيت سعيد، ترفرف عليه أجنحة السعادة، وتشمله ظلال العشرة الطيبة، وقد كنت وضعت هذه الرسالة وأنا فيها دون العشرين، وتعاقبت عليها صروف الزمن وعوامل النسيان، وأهملت ولم تر النور، فرأيت أن

أجدد وجودها وأجلي رسالتها، وأبعث بها بين يدي القراء مرة أخرى بعد عقد طويل مر من الزمان، لما لموضوعها من أهمية قصوى في بناء المجتمع الراشد، والنهوض به راقيا ساميا.. والله تعالى الموفق والمستعان، ومنه نسأل العون والفلاح والقبول.

حاتم إبراهيم محمد سلامة

تمهيد

قال بعض الأدباء:

"**لا تنظر للمرأة نظرة ظاهرية**، فيعجبك منها بريق عينيها وجمال ساقيها ورقة شفتيها ورشاقة ذراعيها ونعومة يديها، فلربما تنظر إليك هذه العين نظرة كبر وغطرسة، وربما يخرج من وراء الشفتين الرقيقتين، لسان يقذف بالقبح وفظائع الألفاظ، وهذه اليد الناعمة صاحبة الذراع الرشيق، قد تنطلق بالقسوة لتريك ألوانا من مصارعة الأسود، والساق المستقيم الذي يذهب بالأبصار قد يخطو نحو الفجور والانحراف"

فلا يخدعك من المرأة مظهرها وجميل هيئتها فالحية ناعمة الملمس.. وفي جوفها السم الزعاف.!

لقد أردت أيها المسلم الصادق أن تحفظ دينك ويملأ العفاف دنياك، فانطلقت للزواج كما أمرك إسلامك، لتحفظ نفسك من شهوة مهلكة وتحمي دينك من غائلة مردية.

أئن كانت هذه غايتك، أيليق بك بعدها أن تسكن لامرأة بذيئة عارية تربت في بيت سوء، وأُشربت حظها من الغواية والفجور؟!

أين لك أن تحقق غايتك وقد سِرت في غير طريقها؟!

لقد أبهرك الجمال، وأخذك المال، ونسيت سوء الخلال، ووحشة المآل.

ألم تعلم أن عشرتك لمن هذه صفاتها قد يرديك ويغويك ويمحو من قلبك الرضا، ويقتل فيك القناعة وحب الطاعة؟!

ولله در القائل:

"إذا لم يكن للمرأة دين أفسدت دين زوجها"[1]

[1] - مختصر منهاج القاصدين

وأنت أيتها الفتاة المسلمة لا تسمحي لقلبك أن يجتاحه الضعف، فتسيطر الدنيا على آمالك وينحدر طموحك مغرورا بالطلاء الزائف، ولتسألي نفسك سؤالا:

هل السعادة في الجمال والمال؟

أم أنها في صلاح النفس وطيب الخصال؟

إن مستقبلك مرهون باختيارك فلتتبصري أمرك ولتحذري في اختيارك.

فإلى الشباب والشابات نوجه تلك التأملات ليدركا معا ما في الاختيار الراشد من سلامة الدين والدنيا، وإلى الزوج والزوجة.

نسوق حديث العشرة الطيبة التي تخرج بيتا سعيدا ينمو تحت ظلاله بنوة راشدة.

الفصل الأول

1- مقصود الزواج في الإسلام

2- التدين أساس الاختيار

3- الاختيار وإرث الأخلاق

4- الاختيار بين الزيف والحقيقة

5- الاختيار ومؤونة الحياة

6- الاختيار ومسؤولية الآباء

مقصود الزواج في الإسلام

إن الإسلام هو أعظم دين تجاوب مع الفطرة الانسانية، فلم يدع يوما للرهبانية التي تجافي طبيعة البشر، وفي الوقت نفسه لم يدع للإباحية التي تهدم الخلق وتخدش المروءة، وتجعل المجتمع ساقطا مهزولا.

ومن هذا التجاوب..

كان الزواج الذي شرعه الحق سبحانه ليوائم ما ركب في الإنسان من غريزة تتطلبها حياته.

وإذا كان الزواج أمرا ضروريا في حياة المسلم، حيث فيه عفته وإحصانه، فإن الإسلام قد نشد من ورائه أهدافا أخرى غير العفة والإحصان، ولم يجعله مقصورا على تلبية الغريزة والإشباع الجنسي.

يقول الشيخ الغزالي رحمه الله تعالى:

"ليس الزواج علاقة اشتهاء بدني وحسب، فهذا تصور هابط، إن هذا الازدواج أساس ارتباط روحي، وامتزاج مشاعر وراحة أعصاب، وآثاره المعنوية أربى من آثاره المادية، لقد قرأت محزونا نبأ ذلك المتدين التعس الذي مزق خصييه بالموسي، لأنه وجد نفسه مهزوما أمام إلحاح الشهوة، وهو يحسب أن ذلك النداء يجب كبته أبدا، وأن التزوج بالنساء خسة لا تليق بالأطهار.! إن قمع الغريزة لم يعرفها رسل الله الكرام، والذين عذبوا أبدانهم بكبتها لم يتحقق لهم الكمال المنشود، حتى لو اقترحنا أنهم هزموا هذه الغريزة سرًا وعلنا، ولم يأذنوا لها قط أن تلتوي بهم هنا وهناك، مع أن ذلك في جملة الناس عسير التحقيق"[1]

ومن هنا كان مقصود الزواج في الإسلام على أمرين:

1- ما يختص بالمسلم

2- ما يختص بدينه

[1] - ركائز الإيمان للشيخ محمد الغزالي

فأما ما يخص المسلم ففيه صيانة لنفسه من مزالق الهوى ومعاطب الشهوات، التي قد تهلكه لو لم يتدارك نفسه بهذا الزواج.

قال ﷺ:

"(ثلاثة حقٌ على اللهِ عونُهم: المُجاهِدُ في سَبيلِ اللهِ، والمُكاتَبُ الذي يُريدُ الأداءَ، والناكِحُ الذي يُريدُ العَفافَ)[1]

ولله در القائل:

إن الزواج يصون النفس يعصمها ** عما يحط بعليائها و يزريها

وأما ما يخص دينه فهو الغاية الكبرى، والغرض الأسمى من الزواج، حيث أن المسلم من خلاله يستطيع أن ينجب الذرية التي يكون عليها نشر هذا الدين واستمرار دعوته تلك الذرية التي تكون جيل النصر المنشود، جيل مبارك يحمل راية الإسلام وينشر تعاليمه فيمثلون وقودًا ومعينا لا ينضب لنصر هذا الدين.

قال تعالى:

" وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ* قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ"[2]

قال الشيخ محمد أبو شهبة في التفسير الصحيح لتلك الفتنة:

" والصحيح المتعين في تقسيم الفتنة هو ما جاء في الصحيحين واللفظ للبخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺقال: قال سليمان بن داوود: لأطوفن الليلة على سبعين تحمل كل امرأة منهن فارسا يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه: قل إن شاء الله، فلم يقل ولم تحمل واحدة منهن

[1] - رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح

[2] - سورة ص: 34-35

شيئا إلا واحدة جاءت بولد ساقط إحدى شقيه، فقال النبي ﷺ: لو قالها لجاهدوا جميعا في سبيل الله"

ونحن أمام هذا النص العظيم نخرج بعضة بليغة، فسليمان عليه السلام قد يتهمه بعضهم أنه نبي شهواني، يهوى جماع النساء، وهؤلاء أمام شهوة أقوالهم نسوا تماما غرضه في كلامه حينما هم أن يقدم على هذا الفعل.!

فلم يكن نبي الله عليه السلام يريد شهوة، ولم يكن من الذين تتيه عقولهم عشقا في النساء، وإنما كانت غايته الكبرى أن تنجب نساءه فرسانًا يجاهدون في سبيل الله سبحانه، فغايته إذن كانت عبادة الله والجهاد في سبيله.!

ويعود بنا الشيخ الغزالي مرة أخرى وهو يتحدث عن اختيار الزوجة فيقول:

"لابد من اختيار زوجة صالحة عند الاتجاه إلى بناء الأسرة، فإن الزواج ليس قضاء وطر، وإراحة بدن ثائر، الأمر أسمى من ذلك، وطالب الزواج عليه أن يرتاد لنفسه ويطلب الأذكى والأنقى، ونحن عادة نحب الجمال الباهر! لتكن ثانوية هذا البحث، وليكن الغرض الأول امرأة ذات خلق وتقى، فإن هذا الغرض إذا ضاع لم يبق ما يحرص عليه، لفت نظري وأنا أطالع درسا في عالم البحار منظر السمك الملون، كل إهاب السمكة مليئا بالنقوش الرائعة والزخارف التي تسبي العيون باتساق الألوان وغرابة الرسوم، ثم عرفت أن هذا النوع من الأسماك سام كله! فقلت ياعجبًا المنظر حلو والمخبر مؤذ، ما أكثر هذا بين البشر (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام)..

أنصح طالب الزواج ألا تخدعه الظواهر المزوقة، وليكن همه الباطن الشريف!

تقول: ومن يعرف الغيوب؟ و أجيب البيوت أمارة مصدوقة، ويغلب أن تكون البنت مثل أبيها أو أمها، وعلينا أن نستشير وأن نستخير"[1]

ورحم الله عمر بن الخطاب حينما قال:

"إني لأجبر نفسي على الجماع لأنجب نسمة تعبد الله"[2]

فحينما ينجب المسلم نسمة يلقنها تعاليم الدين ويربيها على آداب الإسلام، فإنه بذلك يمد الإسلام بسلاح قوي يئد به الانحراف والرذيلة، ويحارب به الانحلال والغواية، ومن هنا كان مقصود الزواج.

لقد قيل إن رسول الله ﷺ تزوج أم المؤمنين عائشة، وأم المؤمنين حفصة، لا لغرض الزواج ولكن لكي تقوى الرابطة بينه وبين صاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عن الجميع.

وفي حرب الردة طلب الأشعث بن قيس من أبي بكر الصديق أن يعفو عنه بعد أن تاب من ردته ويزوجه أخته! ففعل أبو بكر رجاء أن يدوخ الله به وبقبيلته كندة فارس والروم، وقد تحققت نبوءة أبي بكر، ووفى الأشعث بعهده وكان المحارب المناضل في كل عهود الخلفاء من بعده، لقد رأى الصديق ﷺ، أن في هذا الزواج مصلحة للإسلام ضد أعدائه، وهي الغاية المنشودة، بغض النظر عن مصلحة المخطوبة الخاصة.

لقد كان انتصار الإسلام عند أبي بكر هو الغاية الأولى، والهدف الكبير، ومن هنا أمر ولده عبد الله أن يطلق زوجته عاتكة بنت زيد لأنها شغلته عن الجهاد في سبيل الله إذ شغف بها حبا فلم يجد عبد الله مناصا من تلبية أمر أبيه فطلقها ثم أنشد وجدا عليها قوله:

فلم أر مثلي طلق اليوم مثلها ** ولا مثلها في غير ذنب تطلق

إن الصديق ﷺ لم يراع شعور ولديه وعواطفه تجاه من أحبها وعشقها قلبه، لأن مصلحة الدين فوق كل اعتبار، وتتقاصر دونها كل المآرب والغايات.

أخرج الدار قطني عن ابن عمر رضي الله عنهما قال:

---

[1] - قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة - شيخنا محمد الغزالي

[2] - أخرجه البيهقي في سننه في باب النكاح

"دعا النبيﷺ عبد الرحمن بن عوف ﷺ فقال : تجهز – أي للغزو – فإني باعثك في سرية، فذكر الحديث وفيه: فخرج عبد الرحمن بن عوف فلحق بأصحابه فسار حتى قدم دومة الجندل ، فلما دخلها دعاهم للإسلام ثلاثة أيام ، فلما كان اليوم الثالث أسلم الأصبغ بن عمرو الكلبي، وكان نصرانيا وكأن رأسهم، فكتب عبد الرحمن مع رجل من جهينة يقال له: رافع بن مكيث إلى النبي ﷺ يخبره، فكتب إليه النبي ﷺ أن تزوج ابنة الأصبغ، فتزوجها وهي تماضر التي ولدت له بعد ذلك أبا سلمة بن عبد الرحمن"[1]

ومن هذا التوجيه الكريم نرى الحكمة البادية، فهذا الزواج مما يعمل على تأليف القلوب، وتهدئة الضمائر، وإزالة أي شعور في نفوس القوم بالهوان، ليدخلوا الإسلام حبا لا كرها، ورغبة لا رهبة، وكيف يكرهون ويرهبون وهذا الاسلام قد صار بينهم وبينه رابطة الدم والنسب، التي تفرض العصبية والنصرة والتقدير؟!

[1] - انظر حياة الصحابة

التدين أساس الاختيار

فاظفر بذات الدين:

لا نقصد باختيار المتدينة، تلك التي تدين بالإسلام وتتسمى بأسماء المسلمين، وفعالها وخلقها وتربيتها في واد، وأخلاق الإسلام في واد آخر.!

إن بعض نساء اليوم قد غلبت عليهم كثير من الجهالة في الدين، وبيوتهن اللاتي تربين فيها بعيدة كل البعد عن تعاليمه، إنهم يحبون من الفتاة أن تبدي زينتها، وتظهر مفاتنها، وذلك في نظرهم طبيعة ومدنية وتطور وارتقاء وظروف عصر يختلف عن سابقه.!

وقد تثيرك الدهشة حينما تسمع فتاة تعلم لأول مرة أن كشف الشعر حرام، أو أن اختلاطها بالشباب منهي عنه، بل الأدهى ما قالته يوما إحدى الراقصات في إحدى الصحف: لم أكن أعلم أن الرقص حرام.!!

وهكذا تبدو الصورة الرهيبة القائمة التي وصلت إليها بيوتنا ومجتمعاتنا من ضعف الوازع الديني، وفساد الطباع وانتشار الرذائل.

فإذا قصدت المتدينة، فهل تكون تلك التي تزعم الإسلام وكل ما فيها بعيد كل البعد عن هذا الإسلام؟!

قد تكون طيبة مهذبة، لكنها تربت على الاختلاط، نشأت على التبرج،

فهل تستطيع إقناعها بالحجاب والعفاف، وهجر طباعها التي لا تستطيع العيش بدونها؟

أعتقد أن ذلك بعيد المنال!

لقد عبرت الأحاديث النبوية عن ذلك القصد وهذا المراد، فهناك أكثر من حديث شريف يوصي باختيار المرأة الصالحة، إنه ﷺ لم يقل المرأة المسلمة، وإنما قال الصالحة،

فكل صالحة مسلمة وليست كل مسلمة صالحة.

فالتدين إذن هو الصلاح، واختيارك لها من مبدأ الصلاح

" فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله"[1]

وإن لم تكن صالحة فهل تضمن أن تحفظ غيبتك وتصون عرضك؟ بل هل تضمن أن تكون لك مطيعة مجيبة تمتص غضبك، وتصبر على سخطك ساعة ضجرك؟

إن امرأة على عهد عمر بن الخطاب ﷺ ذهب زوجها للجهاد في سبيل الله، وغاب عنها كثيرا، فتُغيم عليها كآبة الوحشة، وتتأجج فيها نار الغريزة، فلا يصدها عن ارتكاب الحرام إلا حاجز الإيمان، ووازع الخوف من الله تعالى ومراقبته، وفي جنح الليل أخذت تقول وتردد ما سمعه منها عمر رضي الله عنها حينما كان يتنبأ أخبار الرعية ليلا فقالت:

لقد طال هذا الليل واسود جانبه ** وأرقني ألا حبيب ألاعبه؟

فوالله لولا الله تخشى عواقبه ** لحرك من هذا السرير جوانبه.!

وفي اليوم التالي دخل عمر ﷺ على ابنته حفصة أم المؤمنين وقال لها: كم تصبر الزوجة على زوجها إذا غاب عنها؟

قالت: أربعة أشهر، فأرسل الخليفة الراشد إلى قواده المرابطين على جبهات القتال يأمرهم ألا يحبسوا جنديا عن أهله أكثر من أربعة أشهر.

إن حديث المرأة بقدر ما تفوح منه مرارة الوحشة وآلام الفرقة التي قد تستدعيها لاستجلاب الخطيئة، إلا أن الخوف من الله تعالى وخشية عقابه قد صارعت كل نوازع الشر في نفسها، وانتصرت على دواعي الهوى المضلة، ليظل عرض زوجها مصونا وشرفه محفوظًا، بدينها وأخلاقها وصلاحها وخشيتها لربها مهما طال السفر، وبعد الفراق.!

إن هذا الموقف ليفرض على كل خاطب مقدم على الزواج، أن يسأل نفسه سؤالا مهما

وهو: مَن مِن النساء تستطيع أن تكون كتلك المرأة التي تحفظ غيبة زوجها وتصون شرفه وعرضه حال غيابه؟

أعتقد أنها المرأة الصالحة وما أرسلته من شعر فصيح فيه الجواب، وليبقى الهم والخسران لكل عازف عن سمة الصلاح في النساء، وليشقى في حياته ملؤها القلق والاضطراب..

[1] - النساء :34

وكما قال ﷺ:

"ثلاثة من السعادة، وثلاثة من الشقاء، فمن السعادة: المرأة الصالحة، تراها فتعجبك، وتغيب عنها فتأمنها على نفسها ومالك، والدابة تكون وطيئة، فتلحقك بأصحابك، والدار تكون واسعة كثيرة المرافق. ومن الشقاء: المرأة تراها فتسوؤك، وتحمل لسانها عليك، وإن غبت عنها لم تأمنها على نفسها ومالك، والدابة تكون قطوفا، فأن ضربتها أتعبتك، وإن تركتها لم تلحقك بأصحابك، والدار تكون ضيقة قليلة المرافق"[1]

وقال عمر رضي الله عنه:

"ثلاث من الفواقر "الدواهي": جار مقامة إن رأى حسنة سترها وإن رأى سيئة أذاعها، وامرأة إن دخلت عليها لسنتك "تناولتك باللسان" وإن غبت عنها لم تأمنها ،وسلطان إن أحسنت لم يحمدك وإن أسأت قتلك"[2]

فالصلاح والتدين هما طريق المسلم وهديه في اختيار زوجته، وإن خالف هذا الهدي، فدون شك لن تخلو حياته من منغصات ينتج عنها بغضه لزوجته وكراهيته لبيته، وهنا تكون الطامة وتكون النهاية.!

الاختيار عندنا وعندهم

لقد أجري بحث ميداني في أريكا في فترة الستينات، بين عدد 426 شابا أمريكيا عن صفات المرأة المثالية، فكانت النتائج كالآتي:

1 – **العقلية الناضجة**

2 – **الصحة الجيدة**

3 – **المظهر الحسن**

4 – **النظافة والعناية بالملبس**

5 – **المرح والميل إلى البهجة**

6 – **الشخصية التي يمكن الاعتماد عليها**

---

[1] - حسن في صحيح الجامع والراوي سعد بن أبي وقاص

[2] - عيون الأخبار لابن قتيبة

7 – **الطهارة الجنسية**

8 – **الميل للعمل والنشاط**

9 – **الروح الدينية**

10 – **أن تكون محبوبة من أهلها وذويها.**

ثم يعلق أحد الباحثين بقوله:

"هكذا جاءت الاجابات من الشباب الأمريكي، والملاحظ هنا أن الطهارة الجنسية والروح الدينية جاءت في آخر الترتيبات، وهذه سمة المجتمعات المادية وما جبلت عليه من هوان الخلق والفضيلة.

ولكن المجتمع المسلم له نظرة أخرى وانتقاءات مغايرة، فدينه فوق كل اعتبار، وإسلامه هو النواة التي منها يبني بيته ويختار شريكة حياته

قال ﷺ:

"تنكح المرأة لأربع، لمالها وجمالها وحسبها ودينها، **فاظفر بذات الدين تربت يداك**"[1]

الفتاة المسلمة والاختيار الرشيد

في حياتنا يذهب المال والجاه بالعقول، ويحظى صاحب الثروة في مجتمعاتنا بالاحترام ولو لم يكن أهلا لهذا الاحترام.! وذلك لأن ماله وثروته قد فرضاه على المجتمع الذي يعشق المادة ويقيم لها وزنا واعتبارا، بل يجعل منها مقياسا لتقييم الرجال.

فإذا تقدم رجلين لخطبة فتاة أحدهما فقير متدين، والآخر ثري قليل الحظ من الدين والالتزام، فعلى جناح السرعة، ينطلق العقل قبل الفؤاد، ليرجح كفة الثري بغض النظر عن قلة تدينه وضمور أخلاقه، أما الرجل الفقير فإنه يعني لفتاة العصر شقاء الحياة ومرارة العيش، حتى وإن كان صاحب دين وخلق قويم.!

وفي نهاية المطاف تكون النتيجة الخاسرة التي تنتاب أصحابها، خسارة في الدنيا وخسارة في الدين.!

[1] - رواه البخاري وغيره

هذا للأسف جزء كبير من صورة واقعنا الذي نعيشه، واقع بعيد عن سمت الإسلام، الذي جعل الاختيار في الأخلاق التي فيها السعادة والسرور.

إن امرأة من السلف الصالح، رفضت الدنيا وزينتها متمثلة في ولي العهد يزيد بن معاوية الذي تقدم لخطبتها، وهذا يعني الثراء والملك والزعامة والسيادة، ولكنها بكل جسارة تعلن رفضها له، لأنها آثرت عليه صاحب الدين الحسين بن علي رضي الله عنهما سبط الرسول ﷺ.

هكذا كانت المقاييس عندهن
هكذا كانت معالم الاختيار في عقولهن

فلتدرك الفتاة المسلمة في اختيارها مصيرها، ولتتبصر خطاها في هذا الزواج الذي ترجو وتأمل أن يكون ابتداء مطية لرضاء ربها وسبيلا لذرية تنفع دينها.

بنات شعيب

يقص علينا القرآن الكريم شهامة موسى عليه السلام، حينما ساعد فتاتين ضعيفتين لم يجدا رجلا على أخلاق موسى عليه السلام يرحم ضعفهما ويسقي لهما.

لقد نالت صفاته الحميدة نيل الرضا من قلبيهما، وأعجبتا بمروءته التي عزت في كثير من الرجال، حينما ذهبتا لأبيهما تحدثانه بمروءة موسى والإعجاب يتملك حديثهما قبل الشعور، لقد أرسل إليه شعيب ليشكره، وفي معرض الحديث كانت المفاجأة لنبي الله، لقد عرض عليه شعيب أن يزوجه إحدى بابنتيه، والقرآن في هذا لم يذكر أن شعيبا قد استشار ابنته في هذا الزواج، لأن حديثها يعلن عما في أعماق قلبها من حماسة لموسى و إعجاب وانبهار.

ولم تكن ابنة شعيب قليلة الخلق والحياء، لقد أثبت القرآن حياءها: "وجاءته إحداهما تمشي على استحياء"

بل كانت ابنة نبي تربت على الأخلاق والصلاح، ومن هنا كان على مثل ما جبلت عليه.

إن فتاة اليوم يبهرها من الرجل جمال هيئته ووجاهة مظهره، وكثرة ماله ومنعة سلطانه.

أما ما خلفته وشهامته، ومروءته ونجدته، فهي آخر ما تفكر فيه الفتاة العصرية الحديثة، لأن هذه الأمور تبدو في نظرها أمورا ثانوية لا قيمة لها، ولعمري.. لهي الأصل الأصيل في عشرة الرجال والعيش معهن.

خديجة الحائرة وأخلاق محمد

وقفت الشريفة الطاهرة، وقفت حائرة، من يتولى أمر مالها؟ من ينمي لها تجارتها؟ إن كثيرين يرغبون في الزواج منها طبعًا وجشعًا ورغبة في مالها.

فلابد إذا لهذا المال من يد أمينة يشوبها العفاف وغنى النفس فترتفع عن مزالق الخيانة والغدر.

ولكن من يا ترى من الرجال من يمتلك سجايا مثل هذه!!

ومن هو صاحب النفس العظيمة العفيفة التي تبحث عنه خديجة ليتولى أمر مالها وتجارتها؟

لابد

أن يكون إنسانا مثاليا ، وهذه المثالية عزيزة نادرة فيمن حولها من الرجال.

لقد ساقت الاقدار محمدا للعمل في مال خديجة، فنمت في المال بركة لم تعهدها، ورأت معها أمانته التي تسامعت بها من قبل.

واندفع غلامها ميسرة بما سحره وأسره من أخلاق محمد وسجاياه يحكي لها شمائله وما رأى فيه من الفضيلة والأدب والخلق العظيم.

ورأت رضي الله عنها أنها أمام فرصة ذهبية إن ضيعتها فهي الخاسرة.

وكيف لا تغتنم هذه الفرصة وقد وجدت فيها ضالتها التي تنشدها منذ زمن، فواحد فقط بلغت فيه الأمانة مبلغها، وواحد فقط تحقق فيه ما كانت ترجوه من الأخلاق الكريمة.

وواحد فقط أطلقت عليه قريش ألقاب الصدق والشرف.

* إنه النفس العظيمة والشخصية الفذة المباركة، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، حفيد سيد قريش، وصاحب الرأي في قومه، ونحن ننظر لاختيار خديجة، وننظر للمقومات التي عول عليها الاختيار في نظرها.

* لقد كانت قريش تعج بالسادات والأشراف وأصحاب النسب والحسب، وذو المال والجاه، لكنها بحكمتها كانت تعلم أن السيادة والنسب لا يمنعان صاحبهما أن يأتي بجريرة، أو يقترف زورا أو سرقة، فالنسيب المجرد من الأخلاق، لا فرق بينه وبين عبد لا خلق له.

* وانطلقت رضي الله عنها بحكمتها لتختار من توافرت لديه مقومات الأخلاق وعناصر الرجولة، لقد اختارت الفضيلة والمروءة في شخصه ﷺ، لكي تطمئن ويرتاح بالها، على مالها وتجارتها، وتلك حكمة هداها إليها عقلها وفهمها.

* لقد أعجبتها أخلاقه ﷺ تماما كما أعجبت أخلاق موسى ابنة شعيب عليه السلام.

وهكذا دائما لكل مهمة وكل عمل، يجب أن نفضل صاحب الدين والخلق ليقود بالتقوى ويصلح بالفضيلة.!

* فلا المال غاية، ولا السلطان مفخرة ولا النسب تشريف، إنما الفلاح في التقي والتدين، ولا قيمة لكل تلك المفاخر الدنيوية الزائلة إن جرد صاحبها من الدين والخلق.

حديث إلى الفتاة المؤمنة

إن الزوج الصالح الذي تنشدينه لحياة سعيدة وعشرة طيبة، هو الزوج المتدين الذي يعاشرك بالمعروف ولا يبخسك حقك، ويبذل لك العاطفة والمودة، فيصون مشاعرك ويكرمك ولا يهينك.

هو الزوج السوي الذي يتحلى بالفهم والإدراك وسعة الأفق، ويستطيع بهذه الملكات أن يستوعب الأزمات والعواصف والعوائق التي تعترض حياة الزوجية.

الزوج المتدين يا أختاه هو الأمل لك في هذه الحياة، وهو الذي يعينك على طاعة ربك فيرشدك لغايتك ويهديك من ضلالك، هو الذي تتعلمين منه القناعة والخلق، وتشعرين معه بالسعادة والهناء.

إن بعض الفتيات اليوم يبتئسن حينما يتقدم لخطبتهن شاب متدين،

سواء عرف عنه تدينه أم كان كذلك بحكم وظيفته، كأن يكون داعية مثلا، وتكون الحجة أنها تخشى أن يكون معقدا مأفونا رجعيا في تفكيره، لا تعرف الضحكات ولا النكات إلى وجهه سبيلا.

ودون شك، فإن هذا من مساوئ الغزو الثقافي الذي عمد إلى تشويه المتدينين بما يملك من أسلحة قوية، هي المعاول التي يهدم بها الأخلاق والفضيلة في مجتمعاتنا.

لقد عمل الإعلام من حين لآخر أن يبرز صورة عالم الدين في هيئة رجل مخرف، لا يعرف إلا الشرود عن الدنيا، والولوج إلى عالم البله والدراويش المجانين، وحينا آخر يبرز الشباب المتدين، في صورة الارهابي المجرم الذي يقتل الأبرياء ويكفر المجتمع ويستبيح الحرمات.

والحق يقال ما عرف الاعلام يوما من الأيام أنه قدم صورة صحيحة للشباب المتدين الصادق الذي يفهم دينه فهما سليما عميقا.

لقد أصبحت أكثر الأسر اليوم تخاف من هذا الشاب المتدين الذي يتقدم لخطبة بناتهن، لأن الاعلام الخبيث ومن ورائه حفنة من أهل الشر قد صوروا المتدينين في صورة لا تليق فلهم العذر أن يتوجسوا خيفة من ذلك، حتى من قبل أن يظهر الإعلام، كانت نفس الفكرة موجودة في مجتمعنا.

ونشأ ذلك من تأصل العادات الغربية والتشبه بالأجانب في سلوكهم وطريقة عيشهم، حتى أصبح كل شيء يمت للقديم بصلة يعد في نظر الناس تأخر وتدهور وتراجع، وشيئا مرذولا كئيبا لا رغبة فيه.!

يحكي الأستاذ أحمد أمين في قصة حياته موقفاً لابد من تسجيله حتى نعلم أن المشكلة قديمة، يقول رحمه الله:

" كنت شابا لا بأس بشكله ولا بأس بأسرته، فأنا وبيتي نعد من الأوساط، وأنا أحمل شهادة عالية، ومرتبي نحو ثلاثة عشر جنيها، وهو مرتب لا يستهان به في ذلك العصر، كنت أتلمس الزواج في أمثالي من الأواسط، لا أطلب الغنى ولا أطلب الجاه ومع ذلك كله وقفت العمامة حجر عثرة في الطريق، فكم تقدمت إلى بيوت رضوا عن شبابي، ورضوا عن شهادتي، ورضوا عن مرتبي، ولكن لم يرضوا عن عمامتي، فذو العمامة في نظرهم رجل متدين، والتدين في نظرهم يوحي بالتزمت وقلة التمدن والالتصاق بالرجعية والحرص على المال، ونحو ذلك من معان منفرة.

والفتاة يسرها الشاب المتمدن اللبق المساير للدنيا اللاهي الضاحك، فكم قيل لي: أن ليس عندهم مكان لعمامة، ورضي بي قوم أولا وأحبوا أن يروني، فأحببت أن أريهم أني متمدن،

وذهبت إليهم أحمل كتابا إنجليزيا، وجلست إليهم وجلسوا إلي وتحدثت عصريا على آخر طراز، وحشرت في كلامي بعض كلمات إنجليزية، فاستغربوا لذلك وفهمت أنهم أعجبوا بي ورضوا عني ولكن بلغني أن الفتاة طلت من الشباك وأنا خارج فرأت العمامة والجبة والقفطان، فرعبت ورفضت رفضا باتا أن تتزوجني رغم إلحاح أهلها.

وشاء القدر أن تتزوج هذه الفتاة فيما بلغني شابا أنيقا كاتبا في وزارة، ولكنه سكير معربد أذاقها المرار في حياتها الزوجية ثم طلقها، وما زال يسوء حالها حتى تزوجت من عامل التلغراف، وجاءت إلي وأنا قاض في محكمة الأزبكية تطلب من زوجها النفقة"[1]

ندم وحسرة

سمعت شيخنا حسن أيوب رحمه الله وقد شكت إليه امرأة فساد بيتها وزوجها، وكانت علتها أنه لا يصلي ولا يتقي الله تعالى، وكل جوارحه هاجرة لعبادة الله وابتغاء مرضاته.

فكان جوابه عليها رحمه الله:

وما الذي دعاك ابتداء وقد عملت عنه فساد الدين أن ترتبطي به؟

*** ألم يسأل وليها عن خلق هذا الخاطب وسلوكه قبل أن تقترن به ابنته؟**

*** ألم يستشر في أمره؟ ألم يختبره في خلقه وسلوكه؟**

إن هذا المصير دوما كان عاقبة كل من أصاب عقله الشلل ساعة الاختيار، ليفسح المجال لمآرب الدنيا أن تسيطر عليه في هذه اللحظة المصيرية.!

وأعرف كذلك امرأة تزوجت رجلا، وحين اختياره كان رجلا كأي رجل، لم يكن مصبوغا بالتدين، وتلك طبيعة الاختيار عند الكثيرين، فالمهم ماله ومستواه المادي، وهل يملك القدرة على إعاشتها أم لا؟

فما الذي حدث؛ وكيف كانت العاقبة؛

لقد استبان أمره وانكشفت حقيقته، إنه من أولئك الذين لديهم استعداد لأكل الحرام وقبول الرشوة.

[1] - حياتي لأحمد أمين

بل كان يأتي بالأجانب لبيته، ويرغم زوجته أن تجلس معهم وتؤانسهم، وانتهت العشرة القصيرة، بغضبة الفتاة التي لم يرق لها الحال، ولم يعجبها تصرفات زوجها المخزية، وكان الفراق هو المصير والنتيجة الطبيعية التي تحملت الفتاة وأوليائها خسارتها، لأنهم لم يزنوا اختيارهم بميزان الدين.!

الاختيار وإرث الأخلاق

إذا كانت أسمى غايات الزواج في عقل المسلم أن ينجب ذرية تعبد الله، وجيلا يحمل راية الإسلام، فإن أولى واجباته أن يهيئ البيئة والتربة التي تصلح لتحقيق هذه الأمنية، وتخريج هذا الجيل الذي يرجوه.

إنها الزوجة التي تجمل خصال الخير، وإن على رأس ما يتحراه الخاطب في انتقاء شريكة حياته، أن تكون طيبة المنبت، كريمة المنشأ والأصل والبيئة، لأن إرث الطباع والخصال غلاب يحمله النسل طبيعة وخلقة.

ولله در القائل:

فإن شئت أن تختر لنفسك حرة ** عليك ببيت الجود خذ من خياره

وإياك والبيت الدنيء.. فربما ** تعار بطول في الزمان بعاره

ومن هنا نصح رسول الله ﷺ بانتقاء الكريمة الأصيلة ذات الدين

فقال: (تخيروا لنطفكم)[1]

وروى البخاري بسنده عن أبي هريرة قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن امرأتي ولدت غلاما أسود، فقال: «هل لك من إبل» قال: نعم، قال: «ما ألوانها» قال: حمر، قال: «هل فيها من أَوْرَقَ» قال: نعم، قال: «فأنى كان ذلك» قال: أراه عرق نزعه، قال: «فلعل ابنك هذا نَزَعَهُ عِرْقٌ»

وهذا الحديث وإن كان يظهر الميراث الشكلي، فإن الأولى منه ميراث الخصال والطبائع، وهي التي يرثها الإنسان تماما كما يرث الشكل والمظهر، بل ربما أشد، فليتحرى المسلم في ميراث أولاده، ويتقي الله في نفسه فيرفعها ولا يهينها.

وكما قال عروة بن الزبير:

[1] - خرجه الحاكم في المستدرك

"ما رفع أحد نفسه بعد الإيمان بالله بمثل منكح صدق، ولا وضع نفسه بعد الكفر بمثل منكح سوء"

ولنتأمل قول الشاعر الذي يؤكد تلك الحقيقة فيقول:

وأول خبث الماء خبث ترابه ** وأول خبث القوم خبث المناكح[1]

وقال عربي: "لا أتزوج امرأة حتى أنظر إلى ولدي منها فقيل له: كيف ذلك؟

قال: أنظر إلى أبيها وأمها، فإنها تجر بأحدهما"[2]

وما أجمل هذا الشعور السعيد الذي غمر قلب رجل نظر لأبنائه وما هم فيه من طيب الخصال، فكان خطابه لهم بزهو وترنم:

وأول إحساني إليكم تخيري ** لماجدة الأعراق باد عفافها

وما جدة الأعراق هي الصالحة ذات الدين، طيبة المنبت، كريمة الخصال، وهي الأم التي ربتهم وتشربوا سجاياها.

وإذا تأملنا القرآن الكريم تأملا دقيقا

لوجدنا أن الله تعالى يلفت أنظارنا بهديه إلى تلك المسألة، مشيرا إلى ما للبيئة من أثر في تكوين الإنسان، فكان الأبوين طاهرين صالحين، أخذت الذرية بنصيبها من حال الأبوين، وإن كانا قد طبعا على الشر والرذيلة، خرجت وقد تشربت خبيث الطباع ورذيل الصفات.!

قال تعالى:

"فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا * يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا"[3]

وأمام هذا المشهد المذهل تعجب القوم، لقد جاءتهم مريم بما يحمل على الاتهام بالفاحشة، ولو كان الأمر يقتصر على صلاح مريم فقط، وهو ما أشاروا إليه بقولهم: يا أخت هارون، لكان

---

[1] - عيون الأخبار لابن قتيبة
[2] - المرجع السابق
[3] - مريم : 28-72

الأمر هينا مقبولا، فلربما خدعها شقي فنال منها وحملت منه، لكن مريم قد أضيف لصلاحها ما يمتنع العقل معه أن يصدق ذلك، وهو ما تبدى في حديثهم، حينما قالوا لها:

(ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا)

أي أنك يا مريم كريمة الأصل طاهرة المنبت، شببت على استقامة أبوين كريمين، فلم يكن فيهما خساسة طبع أو رذالة سوء ومن كان كذلك في نظرهم، كيف يتسنى له الإتيان بالسوء؟!

الاختيار بين الزيف والحقيقة

يختال المرء فخرًا ويتغنى طربا، لو خطب فتاة من بيت عريق ذو حسب ونسب يحسده عليه الجميع، ولنتأمل واقع القوم، كيف يفهمون؟ وكيف يختارون؟

إن بيوت الحكم والثروة هي بيوت الحسب والنسب في أعين الناس، بل هذه البيوت الرفيعة التي ينشدها الخطاب، أما البيوت الوضيعة فهي التي يغشاها الفقر، وليس لرجالها حظ من الكبرياء الدنيوي.

وهكذا يخرج الإسلام من المعادلة، ليكون بعيدا عن مناط الاختيار، لكننا نصارح الواهمين بما غفلوا عنه فنقول: إن تلك البيوت التي أعلوها لحظها من الدنيا هي أوهى البيوت وأخبثها إن كانت بعيدة متجردة من سمت الإسلام، أما البيوت الوضيعة في نظرهم، فهي أغنى البيوت وأرفعها لو كان الإسلام مترسخًا في حياة أفرادها.

فمن الظلم الكبير إذن أن نُعرض عن المؤمنات المتدينات بحجة فقرهن واتهامهن بالوضاعة، ونهرول لذات الغنى والقبيلة، وبينهما وبين التدين شقاق بعيد، يقول الله تعالى:

"وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ.."[1]

ويقول تعالى:

" وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ"[2]

ويقول أيضا:

"وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ"[3]

---

[1] - سورة النساء: 25
[2] - سورة البقرة: 221
[3] - سورة النور: 23

لقد رغب الله تعالى في المرأة شريطة الصلاح والتقوى مما يؤكد أن الإسلام والتدين هما السمات الأولى التي يجب أن تكون أول العناصر والمقومات التي تكون مناط التقييم من الرجال للمرأة.

يقول شيخنا الدكتور محمود عمارة:

" يباح التزوج بالأمة شريطة أن تكون مؤمنة على جانب من الخلق يعصمها من الزلل واتخاذ الأخدان، وإذا كان زواجها لا تقبله النفوس بسهولة، فإن الآية تذكر الشباب بأن " بعضكم من بعض" فإن الحرية إن فاتت، فقد بقي الإيمان عنصرا له أهميته"[1]

وبهذه الحكمة الباهرة يدعو القرآن إن تعذر الزواج بالحرة، أن يرتبط المسلم بأمة جارية صاحبة عفة ودين، ولا عيب في ذلك ولا هوان، فدينها يرفعها ويعزها، ويفضلها على غيرها من الحسيبات الساقطات.!

فالنسب إذن في الإسلام هو التدين وليس في الثروة والعائلات الكبيرة، التي تهوى وتصغر أمام تقصيرها في دينها.

فمن سلك ذلك فقد أساء لنفسه وظلمها.

وما أعظم ما في الحكمة النبوية من بناء المجتمع وإرشاده وتسديده.

يقول ﷺ:

"مَنْ تزوَّج امرأةً لعزِّها لم يزدْه اللهُ إلا ذلًا ومَنْ تزوَّج امرأةً لمالِها لم يزدْه اللهُ عزَّوجلَّ إلا فقرًا ومن تزوَّج امرأةً لحُسنِها لم يزدْه اللهُ عزَّوجلَّ إلا دناءةً ومن تزوَّج امرأةً لم يتزوجْها إلا ليغضَّ بصرَه أو يحصِّنَ فرجه أو يصلَ رحِمه بارك اللهُ له فيها وبارك لها فيه"[2]

وقال ﷺ:

"من أراد أن يلقى الله طاهرا فليتزوج الحرائر"[3]

والمعنى في الحرائر كما قال السندي:

---

[1] - تربية الأولاد في الاسلام- د. محمود محمد عمارة

[2] - أخرجه ابن حبان في المجروحين والطبراني في المعجم الأوسط وأبو نعيم في الحلية واللفظ لابن حبان.

[3] - رواه ابن ماجة

"والأقرب حمل الحرية على الحرية المعنوية وهي نجابة الصفات، أي أن تكون متحررة من رقة الهوى، وإسار الشهوة، بفضل رجحان العقل وإحسان الخلق"

ولما تزوج علي بن الحسين ﷺ أم ولد لبعض الانصار، فلامه عبدالملك في ذلك فكتب إليه: "إن الله قد رفع بالإسلام الخسيسة، وأتم النقيصة، وأكرم البه من اللؤم، فلا عار على مسلم، هذا رسول الله ﷺ أمته، وامرأة عبدة، وهي مارية القبطية، فقال عبد الملك: إن علي بن الحسين يتشرف من حيث يتضع الناس"[1]

[1] - عيون الأخبار

الاختيار ومؤونة الحياة

من معالم الحياة السعيدة أن تتوفر مقوماتها، وأولها الزوجة الصالحة، صاحبة الدين والخلق، التي تفهم معنى الزواج وما يحمل من مسؤولية وكفاح.

قال بعض العرب:

"لا تنكحوا من النساء ستة لا أنانة ولا منانة ولا حنانة ولا تنكحوا حداقة ولا براقة ولا شداقة"

* أما الأنانة فهي التي تكثر الأنين والتشكي وتعصب رأسها كل ساعة فنكاح المراضة أو نكاح المتمارضة لا خير فيه .

*والمنانة التي تمن على زوجها فتقول فعلت لأجلك كذا وكذا والحنانة التي تحن إلى زوج آخر أو ولدها من زوج آخر وهذا أيضا مما يجب اجتنابه .

*والحداقة التي ترمي إلى كل شيء بحدقتها فتشتهيه وتكلف الزوج شراءه .

*والبراقة تحتمل معنيين

أحدهما أن تظل طول النهار في تصقيل وجهها وتزيينه ليكون لوجهها بريق محصل بالصنع.

والثاني أن تغضب على الطعام فلا تأكل إلا وحدها وتستقل نصيبها من كل شيء وهذه لغة يمانية يقولون برقت المرأة وبرق الصبي الطعام إذا غضب عنده والشداقة المتشدقة الكثيرة الكلام"[1]

ولكننا لو تأملنا كل هذه الرزايا التي ذكرها العربي الحكيم، لوجدناها أبعد ما تكون في المرأة الصالحة ذات الدين والخلق والتربية القويمة الرشيدة.

تلك التي تدرك أن الزواج شراكة بينها وبين زوجها،

[1] - انظر إحياء علوم الدين

ومن هذا الإدراك، لا يمكن أبدًا أن تراها تئن أو تشتكي أو تمن عليه أو تحن لغيره من الرجال، أو أن تكلفه مالا يطيق من مؤونة الحياة.

إنها تدرك أن الزواج مثابرة ومسؤولية، وأفراح وأتراح، فهي دائما عون زوجها، حتى تستقيم بها الحياة وتنال السعادة المنشودة.

كانت أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها، ترعى زوجها حتى في خلوته وتأملاته، قبل أن يكون نبيا، **ترعاه ولا تتأفف ولا تضجر منه**، حتى إذا جاءه الوحي وحدث ما حدث، فماذا كان موقفها؟ وماذا كان قولها؟ هل قالت له: وما الذي أخرجك من بيتك لتبيت في الغار؟ هل قالت له: اجلس في بيتك وارع أولادك وزوجك ولا تذهب إلى هذا المكان المخيف مرة أخرى؟ هل أنبته

على ترك فراشه وولده وانشغاله بأمور لا شأن لهم بها؟!

كلا والله، فإن المرأة العظيمة رضي الله عنها وأرضاها، قالت له قولة تعبر عن طيب معدنها وكريم أصلها وعظيم وفائها ومدى تقديرها لزوجها:

"إني لأرجو أن تكون بني هذه الأمة"

لقد قالتها وهي تعلم ما يترتب عليها، لقد قالتها والدنيا يومها ظلام في ظلام، وجاهلية حاقدة مطبقة، وسيكون هو ﷺ، تلك الشمعة التي ستضيئ هذا الظلام الدامس، وتغير هذا الوجود البائس، وتخرج الناس من العتمة إلى النور، لقد فرحت بما استقر في وجدانها بأن زوجها سيكون نبي هذه الأمة، ولكنها تطلعت من ابن عمها لما سيكون على كاهل هذا النبي من تبعات ومشقات، لكنها كانت تتأمل الخير العميم في هذا الزوج الذي لا مثيل له بين الرجال، لقد دفعته خديجة دفعا لغايته، تنصر بالمال والحسب ولا تدخر وسعا في إعزازه ودينه، فأي زوجة اليوم تتمنى أن يكون زوجها في موقعه من الدعوة على طريق النبي ﷺ؟

وهو سؤال مهم وموجه للزوجة،

ماذا تتمنين لزوجك؛ وماذا أنت قائلة له؛)[1]

[1] - صفاء الابتداء لعبد الفتاح شاهين

إن خديجة رضي الله عنها كانت تقدر زوجها وتحترمه، وتعلم أن حديثه هو الحق والصدق، وأن ما عليه هو الصواب فلم تفل يوما من عزمه، ولم تفت من مضائه، وإنما كانت تشد من أزره وتقف وراءه حامية مساندة لآخر لحظة في حياتها، فما أعظمها من زوجة يحتاج الإسلام اليوم لمثلها حتى يرتفع لواءه وتعز رايته، ولو كان في المسلمين اليوم كخديجة رضي الله عنها لصار الحال غير الحال ولتبدلت شيم كثير من الرجال.

ولنترك أم المؤمنين رضي الله عنها فهي زوجة النبي ﷺ، والتي بشرت ببيت في الجنة من فوق سبع سماوات، ولننظر لواحدة من المسلمات، وهي زوجة عوف بن مالك الأشجعي، حيث زوجها إلى النبي ﷺ وقال له: يا رسول الله إ، ابني أسره العدو وجزعت أمه فما تأمرني؟ قال آمرك وإياها أن تستكثروا من قول لا حول ولا قوة إلا بالله ، فقالت المرأة: نعم ما أمرك به فجعلا يكثران منها فغفل عنه العدو فاستاق غنمهم فجاء بها إلى أبيه وهي أربعة آلاف شاة فنزلت:

{ ومن يتق الله يجعل له مخرجا }[1]

لقد ذهب مالك لرسول الله ﷺ ، عله يتنبأ له بخبر ولده، أحي هو أم ميت، لقد شكا إليه بعاطفة الأبوة الحانية، والتي أخذت لب النبي الكريم ورق لها، فأرشده وأمه لما فيه تفريج الكرب، وذهاب الهم والحزن، لقد قال له: آمرك وإياها أن تستكثرا من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله .

وذهب الرجل لزوجته وهي الجريحة في ولدها، لقد كانت تنتظر من زوجها أن يأتيها ببصيص أمل عن مستقبل ولدها من عند النبي ﷺ، لكن المفاجأة المذهلة أن جاءها بالذكر المبارك التي لم تنكره ولم تهزأ به وإنما آمنت كل الايمان أن فيه الفرج والأمل.!

[1] - انظر أسباب النزول للسيوطي وفتح القدير وحياة الصحابة

لقد قالت المرأة لزوجها: نعم ما أمرك به رسل الله، هكذا بكل بكل إيمان وثقة يقين وصبر، يبلغ اليقين في قلبها مداه من تصديق سيدها محمد ﷺ، ولم يستطع اليأس بكل ما أوتي من قوة أن يتسرب لقلبها أو يوهن من إيمانها.

ولو أن امرأة غيرها وقليلة الإيمان، لصرخت وحزنت وبكت، ولعنت الجهاد والدعوة التي تسببت في ضياع فلذة كبده الأن الرباط بالإيمان اليوم في كثير من القلوب صار ضعيفا هشا تداعت أركانه وتصدع بنيانه.

ولله در القائل:

مالي أرى الناس والدنيا مولية ** وكل حي عليها سوف ينبتر
لا يشعرون بما من دينهم نقصوا ** وإن هم نقصت دنياهم شعروا

لكن المرأة الصالحة بلغت بإيمانها مبلغ الجبال الرواسي، فكانت شامخة في انكسارها، عظيمة في حزنها، مبهرة في صبرها.

وفوق ذلك الثبات الرهيب، نلمح موقفها وهي تشارك زوجها في أعظم محنة في حياتها، لقد كان الزوج يحمل همهما حين اشتكى لرسول الله فقال: إن ابني أسره العدو وجزعت أمه.

فهما حالتان كلاهما مفزع، أسر الوالد وجزع الأم، وكأنه يعلن بهذا القول أنه خارج المحنة، وخارج نطاق اللم على ولده، لأنه المؤمن المحتسب، وحينما ذهب بقول النبي ﷺ لزوجه، نزلت عليها الكلمات نزول السكينة على قلوب المؤمنين، لتمنحها الثبات والقوة.

وهكذا دائما شأن الزوجة الصالحة. تعين زوجها وتصبر على مشاق الحياة بما فيها من محن وبلاء وفقر وحاجة وأفراح وأتراح.

أم سليم والحزن الدفين

ليس هناك أفجع من الموت، وخاصة إن أصاب حبيبا أو قريبا، وقد مر بنا كيف جزعت زوج الأشجعي على فقد ولدها، ولكنها غالبت نوازع الأمومة، بالصبر والثبات، أما زوجة أبي طلحة رضي الله عنهما فقد حازت قصب السبق في الثبات واليقين.

ولسنا نتحدث عن صبرها بقدر ما نتحدث عن لطفها بزوجها وتسريتها عنه وإشفاقها به، إن ولد المرأة لو مات لاهتمت واغتمت، ولظلت فترة طويلة وعمرًا مديدًا، تزرف الدمع عليه

حزنا، وتوجد جوا ومناخا من الكآبة والأحزان، وهو ما يذكر الرجل دوما بالمصاب فيكره البيت وما فيه من سحب الأحزان والآلام، لكن المدهش أن أم سليم كان من أمرها عجبا.

روى مسلم:

مات ابن لأبي طلحة من أم سليم فقالت لأهلها: لا تحدثوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا أحدثه، فجاء فقربت إليه عشاء فأكل وشرب ثم تصنعت له أحسن ما كانت تصنع قبل ذلك فوقع بها، فلما أن رأت أنه قد شبع وأصاب منها قالت: يا أبا طلحة، أرأيت لو أن قوماً أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهم؟ قال: لا فقالت فاحتسب ابنك قال: فغضب ثم قال: تركتني حتى إذا تلطخت ثم أخبرتني بابني؟ فانطلق حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره بما كان فقال رسول الله ﷺ :بارك الله في ليلتكما"

إن أم سليم رغم ما كانت عليه من رباطة جأش وثبات وشكيمة، فقد تحلت بالحكمة والحوار الرصين، وأتت زوجها بحوار عقلي ليكون ردئا لها في تخفيف الألم الرهيب، وبدلا من أن يكون الأب في موقفها فيُصبرها ويهدهد من بلائها، كانت هي الزوجة المثالية، التي تحفظ زوجها من أن يتسرب إلى نفسه ما يحزنه، حتى ولو كان ذلك على حساب عاطفتها الجريحة.!

أسماء بنت أبي بكر

إن ذات النطاقين لها في نفس كل مسلمة تقدير كبير ومثل يحتذى ، لقد كان لها دور كبير في الهجرة، ولم لا وهي بنت الصديق رضي الله عنه ، التي ارتبط ذكرها بالإسلام في مهده، وساهمت بجد في قيام دولته، يوم أن أراد الطغيان وزبانيته أن يعصفوا بصاحب الرسالة ﷺ.

ونحن لا نتحدث عن ثباتها وإسلامها، فما نريده في هذا المقام أن نبرز أسماء سيدة البيت والزوجة الصالحة، التي كانت تصبر على ضيق الحياة وشظف العيش، وتؤازر زوجها وتقف بجواره مؤمنة..

إن بيتها وما فيه من تعب ونصب، هو واجبها الذي يجب أن تؤديه، ومسؤوليتها التي أنيطت بها.

لقد صبرت على حلو الحياة ومرها، فلم تكل أو تمل.

تقول رضي الله عنها: "تزوجني الزبيرُ ومالَه في الأرضِ من مالٍ ولا مملوكٍ ولا شيءٍ، غيرَ فرسِه، قالت: فكنتُ أعلفُ فرسَه، وأكفيهِ مؤنتَه، وأسُوسُه، وأدقُّ النوى لناضحِه، وأعلفُه، وأستقي الماءَ، وأخرزُ غربَه، وأعجنُ، ولم أكن أُحسنُ أخبزُ، وكان يخبزُ لي جاراتٌ من الأنصارِ، وكن نسوةَ صدقٍ، قالت : وكنتُ أنقلُ النوى ، من أرضِ الزبيرِ التي أقطعَه رسولُ اللهِ ﷺ على رأسي، وهي على ثلثيْ فرسخٍ"[1]

لك الله يا بنت الصديق، لقد صرت في صبرك قدوة لكل مسلمة تؤمن برسالتها نحو بيتها وزوجها، بل كل مسلمة عاقلة تدرك أو وقوفها بجوار زوجها، من أكبر العوامل التي تزيد الود بينهما وتقيم بيتًا سعيدًا.

هكذا كانت النساء في صدر الإسلام خير معوان للرجال على نوائب الدهر ومشاق الحياة.

بل هن ممن قال فيهن الشاعر:

فزوجة المرء عون يستعين بها ** على الحياة ونور في دياجيها

مسلاة فكرته ان بات في كدر ** مدت له لتواسيه أياديها

في الحزن فرحته تحنو فتجعله ** ينسى بذلك آلامـا يعانيها

كم زوجة ذات عقل غير مسرفة ** تدبر الأمـر تدبيرا ينجيها

تعامل الزوج في أحوال عسرتهوفي اليسار بما في النفس يشفيها**

والزوج يدأب في تحصيل عيشته ** دأبا ويجهد منه النفس يشقيها

ان عاد للبيت يلقى ثغر زوجته ** يفتر عما يسر النفس يحييها

هذي القرينة هذي من تحن لها ** نفس الأبي ولكن أين تلفيها

وإذا ما تخطينا صورة النساء الأول، لنرى إلى أي هوة سحيقة سقطت فيها نساء أوروبا، واحتطب في حبلهم كثيرات من نساء المسلمين!!

[1] - رواه مسلم

نرى سلوكا وصورا لا يمكن أبدا أن ينشأ عليها بيت سعيد، أو يحيا في ظلها عيش هادئ مستقر، وهي صورة نرى فيها اختلافا كبيرا عن صورة النساء الصالحات من نساء سلفنا الصالح.

* تقول السيدة الليدي هارليك، وهي زوجة سفير انجلترا في أمريكا، وكاتبة متخصصة في شؤون المرأة تقول: حقيقة إن أسهل شيء عند المرأة هذه الأيام هي أن تعلن استقلالها، وأنها تتساوى مع الرجل في العمل، أما بالنسبة إلى منزلها وعائلتها، فهما يحتلان المرتبة الثالثة أو الرابعة، وقد أزعجني جدا وأحرجني في نفس الوقت، أن أجد بعض النساء يتفاخرن بأنهن لا يجدن الطهي أو الحياكة، أو القيام بأعمال المنزل.

وتضيف قائلة: إن المأساة بالنسبة للمرأة، أن تتخلى عن واجباتها الحيوية كامرأة، وأن تتحلى عن إقامة بيت طيب سعيد، أن تتخلى عن الطهي والحياكة وإنجاب أولاد ظرفاء.

وأن تتخلى عن كل مسؤولياتها تجاه الأسرة، مقابل أن تعيش كما تشاء.

إن المرأة التي تفضل حياة اللهو والاستهتار واللامسوؤلية والمديح والثناء والجري وراء الموضة، والتفاخر والجهل بأبسط المسؤوليات المنزلية، تنقص من قدرها، وتجعل ضحية لتيار اللامسوؤلية"[1]

ولعمري كيف تستطيع المرأة بهذا السفه أن تقيم بيتا وتربي أبناء وتخلق جوا من السعادة والود ينعم به زوجها وشريك عمرها.

ومما ينسب لمعاذ بن جبل قوله: إنكم قد ابتليتم بفتنة الضراء فصبرتم، وإني أخاف عليكم فتنة السراء وهي النساء إذا تحلين بالذهب ولبسن ريط الشام، وعصب اليمن، فأتعبن الغني وكلفن الفقير ما لا يطيق.

وروى الأصمعي:

"أخبرنا شيخ من بني العنبر قال: كان يقال النساء ثلاث،

[1] - الزوجة المثالية في عيون الرجل- د. رمضان حافظ

فهينة لينة، عفيفة مسلمة، تعين أهلها على العيش ولا تعين العيش على أهلها)[1]

لابد للمرأة أن ترفق بزوجها وتعاونه ولا تطلب منه ما يفوق طاقته ومالا يقدر عليه.

إذا رأى أهلُ بيتي الكيسَ ممتلئا **تبسّمتْ ودَنَتْ مني تُمازحُني
وإن رأتْهُ خَلِيَّاً من دراهمِهِ** تكرّهتْ وانثنتْ عني تُقابحُني[2]

لابد لها أن تتحلى بالقناعة، فترضى بما قدر الله لها، وإلا فلن تكون العاقبة مرضية وحياتها حتما لن تكون مستقرة، وربما تبوء بالفشل.

عن أبي سعيد الخدري ﷺ:

«أن النبي ﷺ خطب خطبة فأطالها، وذكر فيها من أمر الدنيا والآخرة، فذكر أن أول ما هلك بنو إسرائيل، أن امرأة الفقير كانت تكلفه من الثياب أو الصِّيغ – أو قال: الصِّيغة – ما تكلف امرأة الغني»[3]

الزوجة الصالحة عون على طاعة الله

تحدث النبي ﷺ عن الزوجة المؤمنة التي تعين على طاعة الله تعالى فقال:

"ليتخذ أحدكم قلبا شاكرا ولسانا ذاكرا وزوجة مؤمنة تعينه على أمر الآخرة"[4]

وفي رواية: " وزوجة صالحة تعينك على أمر دنياك ودينك"

وعن ثوبان رضي الله عنه قال:

" لما نزلت والذين يكنزون الذهب والفضة قال: كنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، فقال بعض أصحابه: أنزلت في الذهب والفضة لو علمنا أي مال خير فنتخذه؟ فقال ﷺ: أفضله لسان ذاكر وقلب شاكر وزوجة مؤمنة تعينه على إيمانه.

هكذا كان توجيه الرسول الكريم ﷺ..

زوجة صالحة تحفظك من الفتن، وتمنحك العفاف، وتعينك على التقوى، وتقف بجوارك في دعوتك، كما فعلت أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها مع زوجها المختار.

---

[1] - عيون الأخبار لابن قتيبة
[2] - تنسب الأبيات لابن عربي
[3] - أخرجه ابن خزيمة في التوحيد - انظر السلسلة الصحيحة (591)
[4] - رواه أحمد والترمذي

ورحم الله زوجة كانت تُوصي زوجها عند خروجه بقولها: إياك وكسب الحرام، فإنا نصبر على الضر والجوع ولا نصبر على النار.!

لقد هم رجل من السلف بالسفر فكره جيرانه سفره، فقالوا لزوجته: لم ترضين بسفره، ولم يدع لك نفقة؟ فقالت زوجي منذ عرفته أكالا وما عرفته رزاقا، ولي رب رزاق، يذهب الأكال ويبقى الرزاق.

وما أجملها وفي مثلها قيل:

لو كانت النساء كمثل هذه ** لفضلت النساء على الرجال

هذه هي المثل التي عليها قوام البيت المسلم، الذي يتصل أفراده بالله بفضل المرأة الصالحة التي أعانت زوجها، وربت أطفالها على معرفة الله سبحانه.

وعجبا لمن يخطب فتاة أو يرضى أن يتصل بامرأة ليست متدينة، ولا نصيب لها من الخلق والفضيلة؟!

كيف تقيم بيته؟

وكيف تعينه على طاعة الله؟

وكيف تربي أبناءه على شيم الرجال؟

قالﷺ:

(لا تزوَّجوا النِّساء لحسنهنَّ؛ فعسى حُسنهنَّ أنْ يرديهن - أي: يهلكهنَّ - ولا تزوجوهنَّ لأموالهنَّ؛ فعسى أموالهن أن تطغيهن، ولكن تزوَّجوهن على الدِّين، ولأَمَةٌ سوداء ذاتُ دِين أفضل)[1]

وقال أيضا:

(ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله عزَّ وجلّ خيراً له من زوجة صالحة: إن أمرها أطاعته وإن نظر اليها سرّته، وإن أقسم عليها أبرته ، وإن غاب عنها نصحته في نفسها وماله)[2]

[1] - رواه ابن ماجة

[2] - المرجع السابق

وقال أيضا:

"وعن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال من رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه فليتق الله في الشطر الباقي "[1]

ومن هذه الطلائع النبوية المباركة التي ترشد للخير والصلاح، لا ينبغي للمسلم أبدا أن يحيد عنها، ففي الحيد عنها ضياع ومهلكة واتباع للهوى، وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما:

(شر إله عبد في الأرض الهوى)

ولعمري أي خير جناه أولئك الذين بنوا حياتهم على البسمات والنظرات والغزل المشتعل بنار تنطفئ بقطرات، فتكون العاقبة السيئة، أما إذا صار الدين مناط الاختيار، وعليه قاعدة الارتباط بين الزوجين،

فإنه ارتباط قويم لا تنفصم عراه ولا تنحل قواه.

[1] - السلسلة الصحيحة

الاختيار ومسؤولية الآباء

إننا نريد بهذه الكلمات أن نرشد الشباب للسعادة الحقيقة، حينما نجمع رافدين من روافد الصلاح تحت سقف واحد.

ولكننا في ظل هذا التوجيه، لا نغفل دور الأب، والذي بما لديه من حكمة وخبرة بالحياة ودروبها، يستطيع أن يميز بين الغث والسمين، والصالح والطالح، ليرشد ابنته أو ولده لما فيه الخير.

لقد ذكرنا فيما سبق حديث ابنة شعيب عليه السلام، وإعجابها بموسى عليه السلام، ولكننا لم نغفل أبدا دور الأب الراشد الحصيف الذي أبصر الصواب فاتبعه.

إن رسول الله ﷺحمل إنذاره لكل والد يضع ابنته بين أحضان الفساق الذين لا حظ لهم من التدين والصلاح.

فقال ﷺ:

"من زوج ابنته من فاسق فقد قطع رحمها"[1]

وقطيعة الرحم هنا، لأن الأبناء الذين يولدون سوف ينشؤون على سجية أبيهم فسقة منحلين ماجنين، ومن هنا كان قطع الرحم.!

قال الشاعر:

وينشأ ناشئ الفتيان منا ** على ما كان عوده أبوه

ونقل عن بعض السلف قوله:

[1] - رواه ابن حبان

«النكاح رِقٌّ فَلْيَنْظُرْ أحَدُكم أين يضع كَرِيمَتَهُ»؛ لأنَّ صاحِبَ الدِّينِ والخُلُقِ إن عاشَرَها عاشَرَها بمعروفٍ، وإن سرَّحها سرَّحها بإحسانٍ، ومَنْ زوَّج مولِّيَتَه مِن ظالمٍ أو فاسقٍ أو مُبتدِعٍ أو شاربِ خمرٍ، فقَدْ جَنَى على دِينه بسوءِ الاختيارِ." [1]

فإذا زف الرجل ابنته إلى رجل مبتور الصلة بخالقه، فغنه يلقي بها بين مخلب شيطان رجيم، وزفافها إلى القبر أكرم وأسلم عقبى"

ويقول ﷺ:

"إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه.. وإلا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير" [2]

وجاء رجل إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما فقال: قد خطب ابنتي جماعة فمن أزوجها؟ فقال له الحسن: زوجها ممن يتقي الله فيها، فإن أحبها أكرمها، وإن كرهها لم يظلمها."

وقال الإمام الغزالي في الإحياء:

"ويجب على الولي أيضا أن يرعى خصال الزوج، ولينظر لكريمته فلا يزوجها ممن ساء خلقه أو خلقه، أو ضعف دينه أو قصر عن القيام بحقها أو كان لا يكافئها في نسبها"

ولا زلت أذكر موقفا لرجل من الصالحين

حين تقدم شاب يخطب ابنته، واستقبله الرجل ودار بينهما الحديث في شؤون الحياة حتى يتعرف أحدهما للآخر ثم يصدر الحكم بعد ذلك بالقبول أو الرفض، وبينما هما جالسان حتى أذن المغرب، ولم يبرهن الشاب في هذه اللحظة عن حسن علاقته بالله، فلم يستأذن ليؤدي الصلاة، وأيقن الرجل الصالح وقتها أن من لا يصون الفرض لا يصون العرض، فاستأذنه لحظات دخل فيها يؤدي صلاة المغرب، لينطلق بعدها للضيف بقراره الذي أضمره في نفسه، إنه رحمه الله لم ينظر لحال الشاب من فقر وغنى، أو وسامة وجسامة، فتلك أمور لا يهتم به إلا

[1] - قال البيهقيُّ في «السنن الكبرى» (٧/ ٨٢): «ويُذكر عن أسماءَ بنتِ أبي بكرٍ رضي الله عنهما أنها قالت: «إنما النكاحُ رِقٌّ فَلْيَنْظُرْ أحَدُكم أين يُرِقُّ عتيقتَه». وروي ذلك مرفوعًا والموقوفُ أصحُّ واللهُ سبحانه أعْلَمُ». وقال العراقيُّ في «تخريج الإحياء» (٣/ ٤٨٨): «رواه أبو عمر التوقانيُّ في «معاشرة الأهلين» موقوفًا على عائشةَ وأسماءَ ابنتي أبي بكرٍ».

[2] - رواه الترمذي

الفارغون التافهون، وإنما كان كل همه أن يتأكد من دين الرجل، وقد جاءه الدليل سريعا حينما لم يلق الشاب بالا لصدح الأذان!.

* وكان واحد من المريدين قد تزوج بامرأة، فلم يزل يخدمها حتى استحت المرأة وشكت إلى أبيها وقالت: قد تحيرت في هذا الرجل فأنا في منزله منذ سنين ما ذهبت إلى الخلاء قط إلا وحمل الماء قبلي إليه"

* وتزوج بعضهم امرأة ذات جمال، فلما قرب زفافها أصابها الجدري، فاشتد حزن أهلها لذلك، خشية أن يستقبحها خاطبها، فأراهم الرجل أنه قد أصابه الرمد، ثم أراهم أن بصره قد ذهب حتى زفت إليه، فزال عنها الحزن، فبقيت عنده عشرين سنة حتى توفيت، ففتح عينيه حين ذلك من ظلمائها، فقيل له في ذلك فقال: تعمدت ذلك لأجل أهلها حتى لا يحزنوا، فقيل له: قد سبقت إخوانك بهذا الخلق

حقا قد سبقت إخوانك بهذا الخلق

فمن من الشباب اليوم يعلم أن في مخطوبته علة أو سوء ثم يرضى بها أو يبقي على مودتها!! إنهم لنادرون، بل عساهم معدومون.

وفي ضوء هذه الأخلاق العالية والمثالية المبهرة، لا يسعنا إلا أن ننصح ولي الأمر، ووالد الفتاة، بأن سعادة ابنته لن تتحقق إلا باختيار رشيد لشاب أشرب التدين والصلاح، وجبل على تحمل المسؤولية والقيام بواجبه، ويخطئ من من يظن أن مباهج الدنيا ومظاهر المتعة فيها من مال وجاه تستطيع أن تجلب السعادة وتحقق الغاية من عيش سعيد.

قال ﷺ:

"إن أحساب أهل الدنيا الذي يذهبون إليه المال"[1]

لقد نعى ﷺ هذا التقويم الخاطئ، واستنكر أن يكون معيارا للاختيار، ثم بين حقيقة المسلم والسمات التي تؤهله للصدارة والاختيار.

[1] - أخرجه الحاكم في المستدرك

فقد قال أيضا:

"كرم المؤمن دينه ومروءته عقله، وحسبه خلقه"[1]

وقال كذلك: " الحسب المال والكرم التقوى"[2]

وكما هو معلوم من كتاب الله تعالى أن التقوى هي مقياس الرجال

قال تعالى: " إن أكرمكم عند الله أتقاكم"[3]

وعن علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له:

"يا علي.. ثلاث لا تؤخرها، الصلاة على وقتها، والجنازة إذا حضرت، والأيم إذا وجدت لها كفؤا"[4]

وأول الكفاءة التي يراعيها الوالد، أن يكون من أهل الدين والطاعة، وقد كان سلفنا الصالح يراعون أول ما يراعون في الخاطب تدينه وصلاحه، لأن بناتهن مسؤولية وأمانة في أعناقهم، ومن حسن أدائها أن تكون شريكة لرجل يعرف الله تعالى.

جاء في كتاب مفيد العلوم:

"كان المحدث المعروف سفيان بن عيينة جالسًا فجاء إليه ابن أخيه يخطب ابنته، فقال له عمه: كفء كريم، اجلس، فلما جلس سأله سفيان أن يقرأ عشر آيات من كتاب الله، فقال: لا أستطيع فسأله أن يروي عشرة أحاديث، فقال لا أستطيع فقال له: إذن أنشد عشرة أبيات من الشعر، فقال: لا أستطيع، فقال له عمه:

علام أضع ابنتي عندك؟!

ومع ذلك لا أُخيبنك وأمر له بأربعة آلاف درهم، ثم اعتذر عن مصاهرته.

" إنه يحاول أن يكشف عن مكنون نفسه، ليعلم اهتماماتها واتجاهاتها بغض النظر عن وضع الخاطب المالي، وبصرف النظر عن كونه ابن أخيه، فالمال والقرابة لا يشكلان عصبا حساسا

---

[1] -المرجع السابق
[2] - المرجع السابق
[3] - الحجرات :13
[4] - أخرجه الترمذي في باب النكاح

في علاقة الزواج، والمهم هو المعدن الأصيل، والنفس المشغولة بمعاني الأمور، متمثلة في حفظ القرآن الكريم والسنة المطهرة"[1]

لم يكن همه أو غايته ولم يسأل ابن أخيه كم تملك من الأطيان والأموال؟

وإنما كان السؤال الأول والمباح، كم تحفظ من كتاب الله وسنة نبيه؟

لأنهما الأصل الأصيل في معدن الرجال.!

إنه الدين إذن، جوهر الكفاءة، والعامل الأعظم والأكبر في قيام أسرة ناجحة وذرية فالحة.

ولماذا زوج الرسول الكريم ﷺ زينب القرشية من مولاه زيد بن حارثة؟ ولماذا أيضا تزوج بلال الحبشي من أخت عبد الرحمن بن عوف؟

إنه الدين، الأساس المتين، والعماد الصلبة للبيت المسلم والزوجية السعيدة في عقيدة السلف رضي الله عنهم أجمعين.

فمجتمع الإسلام إذن، مجتمع تسقط فيه كل عناصر الطائفية والعنصرية، وكل أسباب العصبية، إنه مجتمع راشد كريم تذوب فيه كل الفوارق، ويسقط معه كل الكبرياء، فالجميع منصاع لقول الحق سبحانه:

إن أكرمكم عند الله أتقاكم.

لا فرق بين عربي ولا أعجمي، ولا أبيض على أسود.. منتهى المساواة والعدالة والإخاء المتين، جاء سعد السلمي إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله أيمنعني سوادي ودمامة وجهي من دخول الجنة؟ قال ﷺ:لا والذي نفس محمد بيده ما ايقنت بربك وامنت بما جاء به رسوله، قال فو الذي أكرمك بالنبوة ولقد شهدت بأن الا الله وان محمد عبده ورسوله ولقد خطبت إلى عامة من بحضرتك فردوني لسوادي ودمامة وجهي فقال ﷺ:

اتعرف بيت عمرو بن وهب قال: نعم قال:

فاذهب إليه وأخطب منه ابنته وكان لعمرو فتاة رائعة الجمال يتنافس عليها شباب العرب وسراتهم فعجب عمرو بن وهب لغرابة الأمر ولكنه لطاعة أمر الرسول ذهب إلى البيت ثم

[1] - ملامح البيت المسلم- د. محمود عمارة

تردد في قبول طلبه وقال له دعني أتروى في امري وتركه سعد وذهب الى الرسول ﷺ ولكن الفتاة سمعت طرفًا من الحديث سألت والدها ماذا يريد الرجل؟ فلما أخبرها قالت ويحك يا أبي او لك أمر بعد رسول الله؟ الحق بالرجل وإلا أنزل فينا من الله من فوق سبع سماوات آيات يفضحنا فيها وخرج عمرو يهرول ليدرك الرجل فلقيه عند الرسول الله وقال له قبلنا طلبك)

وانفجرت أسارير سعد السلمي ثم قال الرسول:

أعينوا أخاكم على قضاء زواجه فجعلوا له اربعمائة درهم فأخذها في صرة وبينما هو منطلق الى السوق سمع المنادي ينادي

ياخيل الله اركبي وإلى الله ارغبي

فنسى سعد زواجه ودنياه ومال الى السوق السلاح فاشترى بكل ما معه فرسا و سيفًا ورمحًا ولثامًا وضعه على وجه وانطلق مع الجيش الغازي فلم يرى مثله مقاتلا في هذا اليوم حتى تعجب من الصحابة! وبعد المعركة وقع من الفريقين أسرى وجرحى وبينما رسول الله ﷺ يتفقدهم رأى الرجل صاحب اللثام شهيدًا ورفع اللثام عن وجهه فاذا به سعد السلمي..

وبكى الرسول شوقًا إليه حتى رأى أزواجه من الحور العين يتباد رنة ثم قال الرسول الله ﷺ لصحبه،

اذهبوا إلى البيت وهب وقولوا لوهب: إن الله تعالى أبدله فتاة خيرا من فتاتكم أي "من الحور العين في جنات النعيم"

هكذا زالت الفوارق وانهدمت الحجب التي وضعتها الجاهلية لأمر الرسول ﷺ إنها تخشى أن ينزل القرآن يفضحهم في آياته، وهذا دليل على قمة الإيمان واليقين وتغليب طاعة الله ورسوله على الهوى ورغبات النفس.

هذا هو مجتمع المؤمنين وهذه هي نفوس المسلمين.

فلننظر للغرب الذي ادعى زورا حمل لواء الحرية والمساواة، لننظر

كيف يعامل بعضه بعضا؟

وكيف تهان فيه آدمية الإنسان وكرامته؟

روت بعض الصحف أن شابا وسيما يعيش في ولاية أمريكية ، وأمريكا كما تزعم بلد الحريات، وقد أحب الشاب فتاة أجنبية، فتزوجها تحت سمع الكنيسة وبصرها، ولكن قانون الولاية المتمدنة المتحررة، يمنع الزنجي من التزوج بفتاة بيضاء، وهناك ادعى أن هذا الشاب من سلالة الزنوج، ولهذا يستحق العقاب الصارم على مخالفته للقانون، وفعلا قبض على الزوج المسكين، فإذا بهم أمام رجل أبيض اللون، ولكن المنافس له زعم أن في دمه من دماء الزنوج ما يساوي نسبة ثمانية في المائة، وهذه النسبة التي تجعل القانون يحرم زواجه من تلك الأمريكية البيضاء..

وأحال القاضي ذلك المتهم إلى علماء التناسل الأحرار، وبعد بحوث وتجارب قرروا أن في دم الزوج ما يزيد فعلا على نسبة ثمانية في المائة من دماء الزنوج السود.

وقد انحدرت إليه هذه النسبة من أحد أجداده السود القدماء، وعلى الفور أصدر القاضي حكمه بسجن الزوج خمس سنوات، بلا ذنب جناه إلا أنه خلق من سلالة قوم سمر اللون، وجرؤ على أن يتزوج فتاة بيضاء، تحبه وتهواه، وما كادت الزوجة تسمع الحكم، حتى خاطبت زوجها قائلة له: إن خمس سنوات ليست بالمدة الطويلة أيها الزوج العزيز، وسأنتظرك وفية مخلصة حتى تخرج من السجن سالما..

أرأيتم

السفاهة في التفكير،

والضلال في الرأي،

والتعصب للون،

والافتخار الكاذب بالجنس والدم؟!

وممن؟! ممن يدعون أنهم أرباب المساواة وكرامة الانسان وحرية البشر، فأين هذا الضلال والتناقض من سمو الإسلام، وتكريمه للإنسان، وتسويته الحقة بين الناس على اختلاف ألوانهم وأجناسهم؟!

أين هذا من الإسلام الذي أعلن للناس أنهم متساوون في الخلقة من دماء وطين؟!

أونهم صنعوا بيد خالق واحد أرادهم جميعا متحابين متعارفين، لا متعصبين متناكرين؟!

قال تعالى:

"يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير "[1]

أين هذه التفرقة الغاشية والتعالي الكاذب من روح الإسلام السمحة، التي لا تعتبر في الزواج من أسباب الكفاءة والجدارة إلا الدين والخلق والعمل الصالح، فيجوز للعبد الأسود المملوك أن يتزوج الحرة النسيبة ما دام مسلما موحدا"[2]

هل تكره الفتاة على النكاح؟

روى أبو داوود وأحمد "أنَّ جاريةً بِكْرًا أتتِ النَّبيَّ ﷺ، فذَكَرت أنَّ أباها زوَّجَها وَهيَ كارِهَةٌ فخيَّرَها النَّبيُّ ﷺ" أي إن شاءت أبقت على الزواج، وإن شاءت فسخته.

عن عبدِ اللَّهِ بنِ بُريدةَ عن أبيهِ قالَ : "جاءت فتاةٌ إلى رسولِ اللَّهِ ﷺفقالت : إنَّ أبي زوَّجني ابنَ أخيهِ ليرفعَ بي خسيستَه، قالَ : فجعلَ الأمرَ إليها فقالت : قد أجزتُ ما صنعَ ولَكنِّي أردتُ أن أُعلِمَ النِّساءَ أن ليسَ إلى الآباءِ من الأمرِ شيءٌ"[3]

تعني أنه ليس لهم إكراههن على الزواج بمن لا يرضونه.

ونحن هنا وأمام هذا الكلام نشعر بمدى الحرية التامة والمطلقة التي منحها الإسلام للمرأة.

"بل لم تفز المرأة الحديثة في أرقى المجتمعات حضارة بهذا الحق إلا في عصور متأخرة من الناحية النظرية، بينما كانت تتمتع به المرأة المسلمة نظريًا وعمليًا منذ ألف وأربعمائة سنة كما نبأت الأحاديث المتواترة"[4]

إن البنت لا تكره على اختيار وقبول من يختاره ولي أمرها، لأن لها ميولها ورغباتها وعاطفتها الخاصة التي يجب أن تحترم وتعتبر وتستشار.

---

[1] - لحجرات: 13
[2] - نافذة على الإسلام للعلامة الدكتور أحمد الشرباصي
[3] - بن ماجة - صحيح
[4] - الإسلام محور المرأة- أحمد حسين بتصرف

ولابد للولي من حوار هادئ مع ابنته، يناقشها ويشرح لها أسباب اختياره وترجيحه، ويذكر لها الميزات التي يتمتع بها من قبله لها، ولا يأمرها أو يجبرها على انتقائه ومراده كما يساق الحيوان، وبهذا الحوار يكون الاقناع ويكون التوافق والقبول، فإذا أبت فلا إكراه ولا إجبار.!

* ذكروا أن هند بنت عتبة بن ربيعة قالت لأبيها: يا أبت، إنك زوجتني من هذا الرجل ولم تؤامرني في نفسي، فعرض لي معه ما عرض فلا تزوجني من أحد حتى تعرض علي أمره، وتبين لي خصاله. فخطبها سهيل بن عمرو وأبو سفيان بن حرب، فدخل عليها أبوها وهو يقول:

أتاك سهيل وابن حرب وفيهما ... رضا لك يا هند الهنود ومقنع
وما منهما إلا يعاس بفضله ... وما منهما إلا يضر وينفع
وما منهما إلا كريم مرزأ ... وما منهما إلا أغر سميدع
فدونك فاختاري فأنت بصيرة ... ولا تخدعي إن المخادع يخدع

قالت: يا أبت، والله ما أصنع بهذا شيئاً، ولكن فسر لي أمرهما وبين لي خصالهما، حتى أختار لنفسي أشدهما موافقة لي. فبدأ يذكر سهيل بن عمرو، فقال: أما أحدهما ففي سطةٍ من العشيرة وثروة من العيش، إن تابعته تابعك، وإن ملت عنه حط عليك، تحكمين عليه في أهله وماله. وأما الآخر فموسع عليه منظور إليه، في الحسب والحسيب، والرأي الأريب، مدره أرومته، وعز عشيرته، شديد الغيرة، كثير الطيرة، لا ينام على ضعة، ولا يرفع عصاه عن أهله. فقالت: يا أبت، الأول سيد مضياع للحرة، فما عست أن تلين بعد إبائها، وتصنع تحت جناحه، إذا تابعها بعلها فأشرت، وخافها أهلها فأمنت، فساءت عند ذلك حالها، وقبح عند ذلك دلالها، فإن جاءت بولد أحمقت، وإن أنجبت فعن خطأ ما أنجبت، فاطو ذكر هذا عني ولا تسمه لي. وأما الآخر فبعل الفتاة الخريدة، الحرة العفيفة، وإني للتي لا أريب له عشيرة فتغيره، ولا تصيبه بذعر فتضيره، وإني لأخلاق مثل هذا لموافقة، فزوجنيه، فزوجها من أبي سفيان، فولدت له معاوية"[1]

[1] - العقد الفريد

لقد حددت هند في نصيحتها لوالدها دوره كولي، إذ لا يليق أن يجبرها على يريد، فله رأيه ولها رأيها، وليس حتما أن يتفق الرأيان، أو يتحد العقلان، فكل عقل له ميوله وتوجهاته، وأدرك والدها ذلك، فقام بدوره كرجل في مجتمع يعرف شخصية الرجال وما يتميز به طبائعهم، ليعرضها على ابنته كناصح أمين، ثم يترك لها من بعد ذلك القرار والاختيار.

تخيروا لفتياتكم

أرد عبد الملك بن مروان أن يخطب ابنة سعيد بن المسيب لولي عهده الوليد، وهو زواج سياسي رآه عبد الملك، فيوم يناسب سعيدا إمام التابعين وسيد العلماء، فإنه نسب يكسبه محبة القلبو، ويتخذ منه دعامة تجذب نحوه الأنصار والاتباع، ولكن ابن المسيب ما كان ليقبل على نفسه وكريمته أن يكون ألعوبة في يد أصحاب الدنيا، ولم يكن هو ممن تستهويهم متع الدنيا وشهواتها والرغبة والطموح في جاهها وغرورها، لقد أتته الدنيا زاحفة، فهذا ولي عهد الخلافة يطلب يد ابنته، والتي إن قبل زواجها فغنها ستكون أعظم امرأة في المملكة الإسلامية ، فكيف يضيع من يده هذه الفرصة، وهذا الثراء والجاه العريض؟ ربما يكون هذا تفكير كثير من الرجال الذين لا يتوانون أو يتأخرون في الحكم على من يرفض هذه النعمة بأنه مجنون، ولكن سعيدا لم يكن من هذا الطراز من الرجال، لأنه العالم الرباني الذي يرى النعيم في الأخرة والجاه في الطاعة، والعز في الزهد والاستقامة، إنه سعيد الذي رفض هذا الزواج، وأبى هذه المصاهرة لأنه من كان يقول يوما:

"إذا رأيتم العالم يغشى الأمراء فاحذروا منه فأنه لص"[1]

لقد أعلن سعيد رفضه وموقفه، وأسرع من جانب آخر ليزوج ابنته من طالب علم فقير، يسمى عبد الله ابن وداعة، يعرضها عليه ولم يتقدم هو لها.

ليعلم الدنيا كلها كيف يؤثر المرء صاحب الدين على صاحب الدنيا.!

يؤثر صاحب الدين والخلق على الحسب والنسب والجاه والسلطة والزعامة.!

[1] - مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة

وحينما سأله أحد الناس مستنكرا فعله: أترد خطبة أمير المؤمنين، وتزوج ابنتك من رجل من دهماء المسلمين، فيقول له في ثقة المؤمنين:

"إن ابنتي في عنقي وقد تحريت فيما صنعته لها صلاح أمرها"[1]

"فليت شعري من سمع قبل ذلك بإنسان قبل ذلك يرفض مصاهرة الخليفة ويدفع بابنته إلى طالب علم فقير، إلا أن يكون عالمًا رفعه الإسلام من حضيض البشرية الطامعة إلى سماء المثالية الرائعة؟ ذلكم هو سعيد!"

ولو كان رجلا غيره لانتشى فرحا وانتفخ فخرًا لأنه سيكون لأمير المؤمنين صهر، ولبيت الخلافة منتسب، ولأسرع بكريمته إلى أعتاب البيت الأموي، بيت الملك والسلطان يقذفها رخيصة هينة عساه ينال الرضا والقبول.

ودائما وأبدًا يصير ابن المسيب بهذا الموقف الهمام، والعقل المقدام، نبراسًا يضيء للآباء طريقهم في معالم الاختيار، ويرد على من مقاييسهم الدنيا، ليفشل برهانهم وما تمسكوا به من مظاهرها، فكم من أثرياء أفسد الثراء أخلاقهم وأخلاق أبنائهم.

ليبقى الدين حافظا للنفس والأخلاق

مهما تبدل الحال من فقر وغنى، من سيادة أو عبادة.!

[1] - صور من حياة التابعين عبد الرحمن الباشا

[2] - علماء في وجه الطغيان-د. محمد رجب البيومي

الفصل الثاني

1- النبي ﷺ في بيته

2- الوفاء بين الزوجين

3- الصبر على الزوجة

4- حقوق بين الطرفين

5- حق القوامة.. لمن ولم؟

6- الزوجة الصالحة وتربية الأولاد

النبي ﷺ في بيته

كان النبي ﷺ مثالا للزوج الرقيق الحاني.

يعامل زوجاته بعطف ورحمة، يهش لهن ويبش، يداعبهن أحيانا ويلاعبهن أحيانا أخرى.

يراعي فيهن ضعفهن، وميلهن للكلمة الحانية، واللفظ الرقيق، ولم يكن بالفظ الغليظ أو بالجامد العبوس، فسيرته ﷺ، خلاف من يعتقد أن مجرد الضحك مع الزوجة أو ملاطفتها رقة في الدين أو شرخ في المروءة.

قال ﷺ:

"أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وخياركم خياركم لنسائكم"

ولقد كان ﷺ خير الرجال لنسائه، ونذكر هنا طرفا من الأحاديث النبوية التي تبين لنا كيف كان الرسول ﷺ، يعامل زوجاته باللين واللطف، والتفاهم والحوار والأخذ برأيهن، واحترام رغباتهن.

إنه ﷺيعطي لنا المثل الأعلى للزوج المثالي، الذي يعاشر بالمعروف ويعامل بالود والتراحم.

خدمته أهله

عن إبراهيم عن الأسود قال:

سألت عائشة ما كان النبي ﷺيصنع في أهله؟ قالت: كان في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة قام إلى الصلاة"

وعن عروة عن أبيه:

قلت لعائشة ما كان رسول الله ﷺيصنع في بيته؟ قالت: يخيط ثوبه، ويخصف نعله، ويعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم"

وفي رواية أخرى لابن حبان وأحمد عن عائشة:

"ما كان إلا بشرا من البشر، كان يفلي ثوبه ويحلب شاته، ويخدم نفسه.

إظهار المحبة والاحتفاء بالزوجة.

وفي هذا تقول السيدة عائشة رضي الله عنها:

" كنت أشرب وأنا حائض ثم أناوله النبي ﷺ، فيضع فاه على موضع في، فيشرب، وأتعرق العرق وأنا حائض، ثم أناوله النبي ﷺ، فيضع فاه على موضع في"[1]

والعرق هو العظم عليه بقية لحم، أتعرق أي آخذ عنه اللحم بأسناني، وتقول: فيأخذ النبي ﷺويضع فاه على موضع في.

وفي هذا إشعار للزوجة، بمحبتها ومودتها والاحتفاء بها، وعدم النفور منها، أو إظهر الزوج أنه يستقذرها، أو يعاف منها شيئا علمه أو رآه.

وما أجملها من عشرة ومودة.

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها:

"كان رسول الله ﷺيتكئ في حجري، وأنا حائض يقرأ القرآن"[2]

الاحساس بالزوجة ومراعاة مشاعرها

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ:

" إنِّي لأعلمُ إذا كنتِ عنِّي راضيةً، وإذا كنتِ عليَّ غضبَى قالت: فقلت: من أينَ تعرِفُ ذلكَ؟ فقالَ: أمَّا إذا كنتِ عنِّي راضيةً، فأنَّكِ تقولينَ: لا وربِّ محمَّدٍ، وإذا كنتِ عليَّ غضبَى، قلتِ: لا وربِّ إبراهيمَ قالت: قلت: أجلْ واللهِ يا رسولَ اللهِ، ما أهجرُ إلَّا اسمَكَ"[3]

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح:

"يؤخذ منه استقراء الرجل حال المرأة من فعلها وقولها فيما يتعلق بالميل وعدمه"

أن يسمع لمشورتها ويستمع ويحترم رأيها

وذلك لأن المرأة كالرجل لها تكاليفها وعليها مسؤولياتها المنوطة بها من الله سبحانه وتعالى، فلها عقلها الذي قد تفوق به كثيرا من الرجال في التصرفات والأفعال والمواقف.

---

[1] - رواه مسلم والنسائي وأحمد

[2] - رواه البخاري

[3] - المرجع السابق

ومن هذا كان رسول الله ﷺ يحترم زوجاته ويستمع لرأيهن، ويأخذ بمشورتهن، ففي يوم الحديبية، كان استماعه لمشورة أم سلمة، سببا لنجاة المسلمين من إثم المخالفة لأمره ﷺ

ففي بعض الروايات:

"فجلى الله عنهم يومئذ بأم سلمة وذلك حين امتنع الصحابة رضي الله عنهم بأن ينحروا هديهم، فأشارت عليه أم سلمة أن يخرج ولا يكلم أحدا منهم كلمة حتى ينحر بدنه ويحلق، ففعل ﷺ، فلما رأى الصحابة ذلك قاموا فنحروا"[1]

أن يلاعبها ويراعي ميلها للهو المرح

وفي هذا نجد النبي ﷺقد سابق السيدة عائشة رضي الله عنها فسبقته.!

(أي في الجري وحدها في السفر)

ثم خرجت معه في سفر آخر بعد أن زاد وزنها، فقال لأصحابه تقدموا، ثم قال لعائشة:

(تعالي أسابقك، فسبقها تلك المرة، فقال لها: هذه بتلك، وضرب بيده على كتفها)[2]

وهذا اللعب كما قلنا ليس مما يوهن المروءة أو يخدش الدين، بل هذا من هديه ﷺ، ومن العشرة الطيبة بالزوجة التي أمر المسلم أن يحسن إليها.. ولعمري أهناك إحسان أكثر من أن يشارك الزوج زوجته، في مرحها ولعبها؟!

بل لقد حث رسول الله ﷺ على ذلك إذ يقول:

" كُلُّ شَيْءٍ لَيْسَ مِنْ ذِكْرِ اللهَّ فَهُوَ لَغْوٌ وَلَهْوٌ إِلَّا أَرْبَعَةَ خِصَالٍ: مَشْيٌ بَيْنَ الْغَرَضَيْنِ، وَتَأْدِيبُهُ فَرَسَهُ، وَمُلَاعَبَتُهُ أَهْلَهُ، وَتَعْلِيمُ السَّبَّاحَةِ"

وكذلك حديثه لسيدنا جابر بن عبد الله:

" فهلا بكرا تضاحكك وتضاحكها، وتلاعبك وتلاعبها "[3]

ثم تعود أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لتؤكد أنه ﷺيحب أن يدخل السرور عليها، ولم ينكر عليها مرحها، وما يعجبها من اللعب المباح.

---

[1] - رواه البخاري
[2] - رواه الترمذي
[3] - رواه مسلم

تقول رضي الله عنها:

"كنت ألعب بالبنات فإذا رأين رسول الله فرن فيقول: كما أنت وكما أنتن "[1]

أي ليستمروا في اللعب دون خوف منه.

وعنها أيضا قالت:

" قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أو خيبر، وفي سهوتها ـ بيت صغير ـ ستر فهبت ريح فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة لعب فقال: ما هذا ياعائشة؟ قالت: بناتي وراى بينهم فرسا له جناحان من رقاع، فقال: ما هذا الذي أرى وسطهن؟ قالت: فرس، قال: ما هذا الذي عليه؟ قالت: جناحان، قال: فرس له جناحان؟ قالت: أما سمعت أن لسليمان خيل لها أجنحة، فضحك حتى رأيت نواجذه" [2] والنواجذ الأنياب.

وحينما أرادت أن تطلع للحبشة وهم يلعبون، لم يحرمها أو يزجرها، وإنما سترها بردائه وهي تنظر.

تقول رضي الله عنها:

عن عائشة رضي الله عنها:

"رأيت النبي ﷺ يسترني بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد حتى أكون أنا التي أسأم فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو"[3]

مراعاتها في مرضها والحنو عليها

لقد مرضت رقية بنت النبي ﷺ، وزوجة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وصادف هذا المرض خروجه ﷺ وأصحابه لغزوة بدر فتغيب عثمان، وقال له النبي الكريم والأب الحنون: أقم معها ولك أجر من شهد بدرا.

وأقام عثمان لأنه ﷺ لا يستطيع القعود بجوار ابنته مع أول ملحمة بين الكفر والإيمان.!

---

[1] - رواه أبو داوود
[2] - رواه أبو داوود
[3] - رواه البخاري

كانت هذه بعض الملامح من سلوكه ﷺ في معاشرته لأهله، والتي نستطيع أن نلمح منها كيف كان سمته ﷺ في معاملة النساء وإكرامهن وحسن عشرتهن.

الوفاء بين الزوجين

من صور الوفاء بين للزوجة وإكرامها أن يراعي الزوج شعورها، ويحفظ كرامتها، ولا يؤجج في قلبها نيران الغيرة والغضب من الحديث عن امرأة أخرى، واسترساله في وصف جمالها أو خصالها.

وقد يكون الزوج متزوجًا بغيرها.. فعليه هنا أن يبتعد عن ذلك أكثر ما يستطيع، ولا يعير زوجته بذكر سمات زوجته الأخرى.. وأن يتحرى العدل بينهما قدر الإمكان، وقد كان ﷺ قمة العدل بين زوجاته.

ففي مرض موته أمر أن يطاف به كل ليلة محمولا على فراس المرض، ليبيت عند صاحبة الدور في المبيت.

ومن مآثر معاذ بن جبل ﷺأنه كانت له زوجتان، فإذا كان عند إحداهما، طبق قيمة العدل تطبيقا صارما، إلى حد أنه إذا كانت نوبة إحداهما.. لم يشرب عند الأخرى ولم يُصل، بل إنهما لما ماتا معا، لم تذهب الفاجعة بلبه، وأعلى مناط العدل حتى في الموت فلم يقدم إحداهما على الأخرى في القبر ولم يصل عليهما حتى اقترع بينهما.

فالوفاء للزوجة يكون بالعدل والإنصاف والمعاشرة الطيبة، والحفاظ على كرامتها وشعورها وإحساسها، وفي وفاء الزوجة لزوجها لا تغيب تلك المعاني، بل هي ثابتة فيه بأصولها.. غير أن وفاءها أبلغ وأشد من وفاء الرجل، لأنها مطالبة أن تحفظ عرضه، وتراعي غيرته، فلا تفتح بابها لغريب، ولا تحدث الرجال، ولا تأذن في شيء حتى ترى أمره ورأيته.. تقول أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها: " تزوجني الزبير وماله في الأرض من مال، ولا مملوك، ولا شيء غير ناضح وغير فرسه، فكنت أعلف فرسه، وأستقي الماء، وأفرز غربه – دلوه – وأعجن ولم أكن أحسن الخبز، وكان يخبز جارات لي من الأنصار، وكن نسوة صدق.

وكنت أنقل النوى من أرض الزبير التي أقطعه رسول الله ﷺ على رأسي، وهي مني على ثلثي فرسخ.. فجئت يوما والنوى على رأسي، فلقيت رسول الله ﷺ ومعه نفر من الأنصار، فدعاني ثم قال: إخ إخ ليحملني خلفه، فاستحييت أن أسير مع الرجال، وذكرت الزبير وغيرته، وكان أغير الناس فعرف الرسول ﷺ أني قد استحييت فمضى، فجئت الزبير فقلت: لقيني رسول الله وذكرت ما حدث فقال:

والله لحملك النوى كان أشد علي من الركوب معه، قالت: حتى أرسل إلي أبو بكر بعد ذلك بخادمة تكفيني سياسة الفرس فكأنما أعتقني"[1]

وحدث أيضا أن ذهب جار الزبير إلى أسماء بنت أبي بكر قائلا لها: دعيني أبع في ظل دارك، فقالت: انتظر حتى يحضر الزبير، واعرض عليه قضيتك، فلما حضر الزوج وعرض البائع مسألته، قالت: كأنما ليس في الحي ظل إلا ظل داري! فقال لها الزبير: مالك والرجل، ثم أذن له!

إن مجرد الجلوس في ظل الدار، لن ينقض الظل من أطرافه، ولكنها تعرف غيرة زوجها فحافظت على هذا الشعور، ولم تفعل ما يغضبه ويكدره، فهذا من صور الوفاء.

الوفاء وإسلام عكرمة

لما كان يوم الفتح أسلمت أم حكيم بنت الحارث بن هشام امرأة عكرمة ابن أبي جهل، وفي التاريخ أنه هرب عكرمة بن أبي جهل إلى اليمن حتى ركب البحر، يوم الفتح، فجاءت زوجته أم حكيم بنت الحارث بن هشام بعد أن أسملت إلى رسول الله ﷺ في نسوة.. فقالت أم حكيم امرأة عكرمة:

«يا رسول الله، قد هرب عكرمة منك إلى اليمن، وخاف أن تقتله فأمِّنه»، فقال الرسول: «هو آمن»، فخرجت أم حكيم في طلبه ومعها غلام لها رومي، فراودها عن نفسها، فجعلت تمنيه حتى قدمت على حيّ من عكٍّ فاستغاثتهم عليه فأوثقوه رباطًا، وأدركت عكرمة، وقد انتهى إلى ساحل من سواحل تهامة فركب البحر، فجعل نُوتيَّ السفينة يقول له: «أخلص»، فقال:

[1] - رواه البخاري ومسلم

«أي شيء أقول؟»، قال: «قل لا إله إلا الله»، قال عكرمة: «ما هربت إلا من هذا»، فجاءت أم حكيم على هذا الكلام، فجعلت تلح عليه وتقول: «يا ابن عم، جئتك من عند أوصل الناس، وأبرّ الناس، وخير الناس، لا تهلك نفسك»، فوقف لها حتى أدركته فقالت: «إني قد استأمنت لك محمدًا رسول الله »، قال: «أنت فعلت؟»، قالت: «نعم، أنا كلمته فأمنك»، فرجع معها وقال: «ما لقيتِ من غلامك الرومي؟»، فخبرته خبره فقتله عكرمة، وهو يومئذ لم يسلم، فلما دنا من مكة قال الرسولُ لأصحابه: «يأتيكم عكرمة بن أبي جهل مؤمنًا مهاجرًا، فلا تسبوا أباه، فإن سب الميت يؤذي الحي ولا يبلغ الميت»، وجعل عكرمة يطلب امرأته يجامعها، فتأبى عليه،

وتقول: «إنك كافر وأنا مسلمة»

فيقول: «إن أمرًا منعك مني لأمر كبير»، فلما رأى الرسولُ عكرمةَ وثب إليه -وما على النبي رداء- فرحاً بعكرمة، ثم جلس الرسولُ فوقف بين يديه، وزوجته منتقبة، فقال:

«يا محمد، إن هذه أخبرتني أنك أمنتني»، فقال الرسول محمد: «صدقت، فأنت آمن».

فقال عكرمة: «فإلامَ تدعو يا محمد؟»، قال: «أدعوك إلى أن تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، وأن تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتفعل وتفعل» حتى عد خصال الإسلام، فقال عكرمة: «والله ما دعوت إلا إلى الحق وأمر حسن جميل، قد كنت والله فينا قبل أن تدعو إلى ما دعوت إليه وأنت أصدقنا حديثاً وأبرنا براً»، ثم قال عكرمة: «فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله»، فسُرَّ بذلك الرسولُ، ثم قال:

«يا رسول الله، علمني خير شيء أقوله».

قال: «تقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله»، قال عكرمة: «ثم ماذا؟»، قال رسول الله : «تقول: أشهد الله وأُشهد من حضر أني مسلم مهاجر ومجاهد»، فقال عكرمة ذلك، فقال رسول الله: «لا تسألني اليوم شيئاً أعطيه أحدًا إلا أعطيتكه»، فقال عكرمة: «فإني أسألك أن تستغفر لي كل عداوة عاديتكها، أو مسير وضعت فيه، أو مقام لقيتك فيه، أو كلام

قلته في وجهك أو وأنت غائب عنه»، فقال الرسول: «اللهم اغفر له كل عداوة عادانيها، وكل مسير سار فيه إلى موضع يريد بذلك المسير إطفاء نورك، فاغفر له ما نال مني من عرض، في وجهي أو وأنا غائب عنه»، فقال عكرمة:

«رضيت يا رسول الله، لا أدع نفقة كنت أنفقها في صدّ عن سبيل الإسلام إلا أنفقت ضعفها في سبيل الله، ولا قتالاً كنت أقاتل في صدّ عن سبيل الله إلا أبليت ضعفه في سبيل الله»، ثم اجتهد في القتال حتى قُتل في سبيل الله.."[1]

ما أروع وفائها لزوجها، وما أشد حرصها على هدايته، إن إسلامها لم يدفعها لتتبرأ منه، وإنما قامت بدور الداعية، فمدت يد العون لمان كان بينها وبينه عشرة ومودة، لتدفعه نحو الحق وتهديه إلى الرشاد.

لقد دفعها الوفاء لتتحمل المصائب والمشاق، وتبذل العناء والجهد، لتبلغه مأمنه، وتزيل رعبه وروعه، وتكفيه مؤونة الغربة والضياع.

وهذا ما نتأمله في موقفها:

أولا: لقد تحملت في سبيل غايتها عناء رحلة شاقة، وسفر بعيد عسير، عبر دروب الرمال والصحراء، وهي الرحلة التي لا يقوى عليها إلا الرجال الأشداء.

ثانيا: إنها مكرت بالعبد الآبق الماكر، الذي راودها عن نفسها، فأخذت تمنيه وتساومه وتصانعه لتأمن غدره وشره، وهو أمر صعب على المرأة الوحيدة الضعيفة، حتى أوقعت به وسلمت من فجوره.

ثالثا: عرضت على زوجها الدعوة بأسلوب حكيم، حيث ذكرته أولا بسلوك النبي ﷺ وصفاته وأخلاقه التي يعلمها ولا ينكرها ليكون أدعى لتصديقها بأنه قد آمنه، حيث قالت: جئتك من عند أوصل الناس وأبر الناس وخير الناس، فاطمأن قلبه لأمان الرسول ﷺ، فمثله لا يغدر أبدًا.

[1] - مغازي الواقدي

رابعا: جاء في خبر آخر أنه جعل يطلب امرأته يجامعها فتأبى عليه وتقول: إنك كافر وأنا مسلمة، ليكون ذلك دافعًا لإسلامه شاعرًا بوحشة الكفر التي حالت بينه وبين زوجه.

الوفاء حتى بعد الممات

لم يكن الوفاء مقتصرًا على الحياة فقط، وإنما كان خلقا وشعورا وذكرى لا يمكن أن تنسى، يعبر عنها المسلم، وتفصح عنها المسلمة، حتى بعد موت أحدهما وفراقه للآخر،

لقد ضرب الرسول ﷺ المثل الأعلى في الوفاء للزوجة، حتى بعد موتها ورحيلها عن الحياة،

ومن ذلك أنه كان يثني على أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها ويفضلها على غيرها، ويبالغ في تعظيمها، بحيث أن عائشة رضي الله عنها تقول:

وعن عائشة رضي اللهَّ عنها قَالَتْ:

"مَا غِرْتُ عَلَى أَحَدٍ مِنْ نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ مَا غِرْتُ عَلَى خديجةَ رضي اللهَّ عنها، ومَا رَأَيْتُهَا قَطُّ، ولَكِنْ كَانَ يُكْثِرُ ذِكْرَهَا، وَرُبَّمَا ذَبح الشَّاةَ ثُمَّ يُقَطِّعُهَا أَعْضَاء، ثُمَّ يَبْعَثُهَا في صدائِق خدِيجةَ، فَرُبَّمَا قلتُ لَهُ: كَأَنْ لَمْ يَكُنْ في الدُّنْيَا إِلَّا خديجةُ! فيقولُ: إِنَّهَا كَانَتْ، وكَانَتْ، وكَانَ لي مِنْهَا ولَدٌ"[1]

وعنها رضي الله عنها قالت:

" جاءت عجوزٌ إلى النبيِّ ﷺ وهو عندي فقال لها رسولُ اللهِ ﷺ: من أنتِ ؟ قالت : أنا جثَّامةُ المُزنيَّةُ فقال : بل أنتِ حسَّانةُ المُزنيَّةُ كيف أنتُم ؟ كيف حالكم؟ كيف كنتُم بعدنا ؟ قالت بخيرٍ بأبي أنت وأمِّي يا رسولَ اللهِ فلما خرجتْ قلتُ : يا رسولَ اللهِ تُقبِلْ على هذه العجوزِ هذا الإقبالَ فقال : إنها كانت تأتينا زمنَ خديجةَ وإنَّ حسنَ العهدِ من الإيمانِ"[2]

وغير هذه الأحاديث التي تبين وفاءه ﷺ.. وفاءه إلى التي آزرته ونصرته، ووقفت بجواره وآمنت به وصدقته.

---

[1] - رواه البخاري
[2] - أخرجه الحاكم

ومن الزوجات أيضا من كانت وفية لزوجها بعد موته

كأسماء بنت عميس، التي كانت زوجة جعفر ابن أبي طالب، ثم لأبي بكر من بعده، ثم خلفه علي رضي الله جميعا، فتفاخر مرة ولدها محمد بن جعفر ومحمد ابن أبي بكر، كل يقول: أنا أكرم منك وأبي خير من أبيك، فقال لها علي: اقض بينهما يا أسماء، فقالت: ما رأيت شابا من العرب خيرا من جعفر، ولا رأيت كهلا خيرا من أبي بكر، فقال علي: ما تركت لنا شيئا، ولو قلت غير هذا لمقتك، فقالت: إن ثلاثة أنت أقلهم لخيار"[1]

وقال الأصمعي: رأيت بالبادية أعرابية لا تتكلم، فقلت: أخرساء هي؟ فقيل لي: لا، ولكن كان زوجها معجبا بنعمتها، فلما توفي أطبقت فلا تتكلم بعده أبدا"

* وانظر لفاطمة بنت عبد الملك زوجة الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز، فقد كانت نعم الزوجة وفاء وإخلاصا، فمما يروى أن عمر حينما ولي الخلافة، أمر أن يوضع ما يملكه هو وزوجته في بيت المال، وكان مما تمتلكه فاطمة، قلادة ثمينة قد أهديت إليها في زواجها، فرأت أن تتنازل عنها عن طيب خاطر وتضعها في بيت المال، ولما توفي عمر، أعادوا إليها القلادة عساها تجعلها في بعض حاجاتها منها، إلا أنها رفضت وقالت:

"ما كان لي أن أطيع زوجي حيا وأعصيه ميتا"

لقد مضت متعة الدنيا وفاء لعمر، فهو الزوج الذي زرع فيها الزهد والقناعة، وعلمها العزوف عن الدنيا، وهجر المفاتن والمظاهر.

* وامرأة أخرى لم يستطع شبح الموت وصورته القائمة، أن يثني من حبها لزوجها، ووفائها لذكراه، إنها عمرة بنت النعمان بن بشير، زوج المختار بن عبيد الله الثقفي، ذلك البطل الذي ثأر لبني هاشم، من قتلة الحسين ﷺ حين أباد جيش الشام الذي أرسله الأمويون له، وقتل عبد الله بن زياد، من أمر بقتل الحسين، وقتل شهر بن حوشب، أو من اعتدى على الحسين.

كما قتل عمر بن سعيد بن أبي وقاص قائد الجيش الذي قتل الحسين، إنه البطل الذي شفى غليل أهل البيت من قتلة ابن بنت رسول الله ﷺ، هذا الرجل لم يلبث عامًا أو بضع عام، زعيما

[1] - قال ابن حجر: أخرجه ابن السكن بسند صحيح عن الشعبي (الإصابة)

على هذه الدولة التي تمردت على بني أمية، حتى حدثت المناوشات بينه وبين ابن الزبير، فسير ابن الزبير جيشه إليه بقيادة أخيه مصعب بن الزبير، فاستولى مصعب على العراق وقتل المختار وأزال دولته في مهدها.

* ومن الأخطاء التي تنسب لمصعب في هذه الملحمة، أنه بعد هزيمة المختار استدعى زوجته أم ثابت بنت سمرة، فسألها ماذا تقول في زوجها؟ فقالت نقول فيه بقولك أنت، فأطلق سراحها، ثم دعا بعمرة بنت النعمان زوجته الأخرى فسألها: فقالت: رحمه الله كان عبدا لله صالحا.! فأرسلها إلى السجن.!

ثم كتب إلى أخيه يقول: إنها تزعم أن زوجها نبي، فكتب إليه بقتلها فقتلت، وفي ذلك قال الشاعر عمر بن أبي ربيعة:

إن من أعجب العجائب عندي * قتل بيضاء حرة عطبول

قتلت هكذا على غير جرم * إن لله درها من قتيل

كتب القتل والقتال علينا * وعلى المحصنات جر الذيول

لقد صار الوفاء بالزوج في نفس المرأة عقيدة، ويقينا لا تتزعزع عنه ولا تقبل المداهنة فيه، وشهدت بشهاد الحق في الافصاح عن عقيدة الرجل قبل أن يكون زوجا لها، إنه عبد صالح، ولو أنها قالت غير ذلك لكانت من أهل الزور، فما أعظمها من زوجة وفية لزوجا المقتول.

الصبر على الزوجة

ما أروع الحسن البصري رحمه الله في نصحه لرجل جاء يسأله بقوله: تقدم لابنتي جماعة فبمن أزوجها؟

فقال له:

زوجها ممن يتقي الله فيها، فإن أحبها أكرمها وإن كرهها لم يهنها"

إن بيت الزوجية تحدث فيه مناوشات واختلاف في الرغبات، وقد تتسع الأمور لتصل إلى طريق وخيم العواقب، بيد أن الزوج المؤمن كفيل بصلاحه أن يئد النفور والفتور، بل لديه القدرة الكبيرة على استيعاب غضب الزوجة وامتصاص ثورتها، لتهدأ الحياة، ويسير فيها شريان المودة من جديد.

يحكى عن رجل في مكة يدعى عبد الله القرشي كان له زوجة مؤذية اصطبر على أذاها أكثر من أربعون عاما.

فلما أشتد أذاها وفاض به الكيل خرج من مكة فاذا هو بالبادية وجد

عابدين يتعبدان ويتدارسان العلم فجلس معهم يتعبد ويقرأ القران ويتقرب الى الله

وكان من شيمة العرب حينئذ ألا يسألوا ضيفهم عن هويته أو غايته الا بعد ثلاثة أيام.

وإذا بوقت العشاء قد حان قال أحد العابدين لصاحبه أدعو لنا الله أن يرزقنا بعشاء فأخذ أحد.. العابدين بالدعاء فما هو الا وقت قصير وإذا بطارق يطرق الباب ويحمل اناء من الطعام . وجاء اليوم التالي وأخذ العابد الأخر يدعو الله أن يرزقهم بعشاء فاذا بالباب يطرق ويحمل أحدهم اناء من العشاء.

وإذا باليوم الثالث فقال العابدين لعبد الله القرشي: اليوم عليك أن تدعو أن يرزقنا الله بعشاء فأخذ الرجل يحدث نفسه أنه رجل عاصي كثير الذنب كيف يستجيب الله وهو لاهي غافل فأخذ يدعو ويقول:

الله اللهم بعمل هاذين العابدين وصلاحهما وايمانهما أن ترزقنا العشاء الليلة

فاذا الباب يطرق ويحمل أحدهم إناءين من الطعام فتعجب العابدين وأخذا يسألون الرجل بما كنت تدعوا يا أبا عبد الله!!

فقال الرجل والله ما دعوت إلا بحق تقواكما وايمانكما ليس إلا !

ثم سألهم بما كنتم تدعون قالوا حدثنا أحدهم عن رجل في مكة يدعى عبد الله القرشي كان له زوجة صبر على أذاها فكنا ندعو الله بحق صبر القرشي على زوجته أرزقنا بالعشاء!"

الزوج المثالي: هو الذي يتدرع بالصبر والحلم إزاء ما يصدر عن زوجته من إيذاء أو قصور أو تقصير، ويتحمل ما قد ينشأ من تصرفاتها، ويعاملها باللين والتسامح والعفو والصفح مستنيراً بما جاء في الكتاب العزيز والسنة المطهرة، قال الله تعالى:

(يأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فأن الله غفور رحيم)[1]

وقال عليه السلام: "اتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله" وذلك لأنه إن كره منها خلقا سره آخر، قال ﷺ: "لا يفرك مؤمنة مؤمنة، إن كره منها خلقا رضي منها آخر"، ومعنى لا يفرك: لا يمقت ولا يسخط.

ولأن المرأة لا تسلم أحيانا من المخالفات أو تجاوزات في التصرفات، وبذل لذلك حديث ابي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ:

"استوصوا بالنساء خيراً، فإنهن خلقن من ضلع، وأعوج ما في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته استمتعت بها على ما فيها، فاستوصوا بالنساء خيرا".

[1] - سورة التغابن: 14

والصبر على الزوجة من خير الأعمال، ولون من ألوان القربة والطاعة، ومن أعظم الأسباب لبقاء الحياة الزوجية، واستمرار المودة والسعادة.

وورد حديث صحيح عن الرسول ﷺ يدل على ضرورة الصبر على أخلاق الزوجة فعن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

«لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقا رضي منها آخر».

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم:

أي ينبغي أن لا يبغضها؛ لأنه إن وجد فيها خلقًا يكره وجد فيها خلقًا مرضيًّا، بأن تكون شرسة الخلق، لكنها دينة، أو جميلة، أو عفيفة، أو رفيقة به، أو نحو ذلك.

وذكر العلماء أن الزوج مأجور بما يفعله من الصبر على زوجته سيئة الخلق.

وقص أحدهم مأساته مه زوجته فقال:

أنا رجلٌ متزوج منذ 12 عامًا، ولديَّ خمسةُ أبناء، امرأتي سيِّئة الخُلق، بذيئةُ اللسان، تتطاول وتسبُّ حتى أمام الأولاد، كما أنها تُعيِّرني بجيراني، وتطعن في عِرضي وعِرض أهلي، ولا ترى قوامةً للرجلِ، بل ولا تشكر معروفًا أسديتُه لها، ولا تحمَدُ حُسْن عِشْرتي معها، كما أنها مُسْرفة جدًّا ومبذِّرة، وتغضب إذا رفضتُ لها أيَّ طلب، وتُقارن بين حياتِنا وحياة أقاربنا.

لا أذكُر أسبوعًا عشتُه معها هنيئًا، مع العلم أنني أعملُ بدوام شهر وعطلة شهر، ومستوى المعيشة جيد!

بكل اختصار: زوجتي ينطبق عليها قوله ﷺ:

(ثلاثةٌ يدعون الله فلا يُستجاب لهم: رجلٌ كانت له امرأة سيِّئة الخُلق فلم يُطلِّقْها، ورجلٌ كان له على رجلٍ مالٌ فلم يشهَد عليه، ورجل أعطى سفيهًا مالَه)،

مع العلم أني طلقتُها مرَّةً، ثم راجعتُها لأجل الأولاد، ووعدَتْني أن تُصلِح من نفسها، ولكن بعد أشهر قليلة عادتْ أسوأ مما كانتْ!

عانيتُ كثيرًا من سلاطة لسانها وتعاليها، وأعلم أن صبرَ الرجل على سوء خُلق زوجته له أجرٌ عظيم، لكني لا أقدر على التحمل، فماذا أفعل؟!وأمام هذه الشكوى قدم له بعض الناصحين هذه العناصر المهمة المجربة في إصلاح الزوجة والصبر عليها إن كانت متمردة وغير مطيعة فقال:

أولًا: الدعاء لها بصلاح الحال، فهو بابٌ عظيم ووسيلةٌ كُبرى للصلاح والهداية، فابتهِلْ إلى الله تعالى وتذلَّلْ بين يديه بالدعاء بالخير والصلاح والفلاح في الدنيا والآخرة، وتحرَّ أوقات الإجابة، وكلما نازعَتْك نفسُك وتملمَلَتْ تذكَّر الأجر الذي يتفضل الله به عليك، وتذكَّرِ الغاية الكبرى من صبرك؛ أعنى: تغليب مصلحة الأبناء.

ثانيًا: ابحثْ عن الأوجه الإيجابية في شخصية زوجتك، وذلك لتتمكَّن من التحاور معها، فتتفقان معًا على أسلوبٍ عمليٍّ للتفاهم، وتبحثان عن وسيلة مهذَّبة لحل المشكلات، والبعد عن التشهير والسِّباب، وهذا يتطلَّب منكما تنازلاتٍ، وتحلَّ بالحِلم واللِّين؛ فإن من أهم ما يستجلب القلوب ويستميلها الكلام الطيب اللين، فقد قال تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[1]

وقال تعالى:

﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴾[2] وقال ﷺ:

(ومَن كان يؤمِنُ بالله واليوم الآخر فليقُلْ خيرًا أو ليصمت)[3]وقال:

[ما شيء أثقل في ميزانِ المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وإن الله ليبغِض الفاحش البذيء] والنصوص في الحث على التحلي بحسن الخلق عمومًا، وحفظ اللسان من السقطات والهفوات وبذيء الكلام – أشهر مِن أنْ تُذكر، وإذا كان هذا مما أمر به الشرع مع عموم الناس، فهو في حق الأزواج آكد؛ لقوة الرابطة، ولطول الملازمة في البيت

[1] - سورة البقرة :83
[2] - الاسراء: 53
[3] - رواه البخاري

والفراش، ولمقام القدوة لأبنائهما قبل كل شيء، ولكي تَقْوى على هذا الأمر ضَعْ دائمًا نصب عينَيْك قولَه تعالى:

﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾[1]

ثالثًا: لا يَخْفى عليك أن قوامةَ الرجل على المرأة مسألةٌ جَبْرية بمعنى أنها لا تفتقر لموافقتها، قال الله تعالى: ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ ﴾[2] ومِن أول مهامّ تلك القَوامة العملُ على حفظ دين الزوجة، وتعليمها ما ينفعها، وإلزامها بحقوق الله تعالى؛ مِن المحافظة على فرائضه، وكفها عن المفاسد، فبيِّن لزوجتك أن ما تفعله معك مِن كبائر الذنوب، وأن إيذاء المسلم بأي نوع من أنواع الإيذاء حرامٌ؛ فعن أبي بَرْزة الأسلمي ﷺ قال رسول الله ﷺ: (يا معشرَ مَن أسلم بلسانه ولم يُفْضِ الإيمانُ إلى قلبه، لا تُؤذوا المسلمين، ولا تُعيِّروهم، ولا تتبعوا عَوْراتهم)[3]

رابعًا: ذكِّرها بالوعيد الشديد الوارد في معصية الزوج، والخاصة بطاعة الزوج، فإن لم يُفِدْ ذلك فاهجُرْها في المضجع، فإن لم تنتهِ فاضرِبها ضربًا غيرَ مبرح، إن غلب على ظنك أنها تستقيم بهذا؛ كما قال الله تعالى:

﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾[4]وقد نصَّ المفسرون والفقهاء على لزوم التدرج على النحو الذي ذكرَتْه الآية الكريمة.

---

[1] - سورة فصلت: 34-35
[2] - النساء: 34
[3] - رواه البخاري
[4] - سورة النساء: 34

قال الإمام الكاساني الحنفي: "فإن كانت ناشزة فله أن يُؤدِّبها، لكن على الترتيب، فيَعِظها أولًا على الرفق واللين، فلعلها تقبَل الموعظة فتترك النُّشوز، وإلا هَجَرها، فإن تركت النشوز فبِها، وإلا ضربها"؛ انتهى.

خامساً: حاوِلْ بقدر الإمكان تقليلَ فترات وجودك في المنزل في شهر العطلة؛ لتفادي ما قد ينشأ من مفاسدَ بكثرةِ وجودك معها، وقد يُستأنس بما روي عن رسول الله ﷺ: (زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا)؛ رواه الطبراني، وصححه الألباني لغيره في صَحِيحُ التَّرْغِيب وَالتَّرْهِيب.

فالتداني في بعض الأحيان، يكون معه القلى والقسوة، وفي المثل العربي: "فرِّق بين معدٍّ تحابّ".

وبعض الزوجات لا تستقيم الحياة معها إلا بقلة المخالطة، وزيادة المسافات الحسية، وعدم مراعاة هذا كثيرًا ما يؤدي لمزيد من العداوة والبغضاء.

وليس أبدا من حسن الخلق مع المرأة كف الأذى عنها، بل احتمال الأذى منها ، والحلم على طيشها وغضبها، اقتداء برسول الله ﷺ، ففي الصحيحين من حديث عمر رضي الله عنه أن أزواج النبي ﷺ كن يراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل.[1]

وتزوج بعضهم امرأة سيئة الخلق، فكان يصبر عليها، فقيل له: لم لا تطلقها؟ فأجاب بقوله: أخاف أن يتزوجها من لا يصبر عليها فيتأذى بها.

قال الغزالي في الإحياء:

"إن تزوج المريد فهكذا ينبغي أن يكون"[2]

فلا بد من الصبر ولا بد من الرفق ولابد من التغاضي عن كثير من الهفوات، لكي تستمر الحياة، وينعم الطرفين بهناء العيش، وليس الحب وحده هو ما يبنى عليه الزواج، فهناك المودة والتراحم والتعاون، وهذه روابط لا تُغفل، بل هي الأسس التي ترد النفس عن هواها، إن كرهت المرأة ونفرت منها.

يقول الله تعالى:

---

[1] - مختصر منهاج القاصدين

[2] - إحياء علوم الدين

"فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى* أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا"[1]

ويقول ﷺ:

"لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقا رضي منها خلق آخر"[2]

ومن هذا الهدي قال عمر رضي الله عنه، لمن أراد أن يطلق امرأته لأنه لا يحبها: وهل لم تقم البيوت إلى على الحب؟ فأين الرعاية والتذمم؟!

و"حدث في عهده أن طلق غيلان نساءه وقسم ماله بين بنيه دونهن، مشردا إياهن ومضيعا، فأمرة بمراجعتهن، وأن يرجع ماله كما كان، له ولبنيه ولهن، فهم جميعا فيه سواء، ورعايتهن حتى بعد وفاته مسؤولية لا مهرب منها، لا سيما بعد أن أبطل الإسلام عادة الجاهلية في حرمان المرأة من الميراث، أو تفضيل بعض أفراد الأسرة الواحدة في ذلك على بعض"[3]

[1] - سورة الطلاق :1

[2] - رواه مسلم عن أبي هريرة

[3] - إحياء علوم الدين

حقوق بين الطرفين

لكل من الزوج والزوجة حقوق يجب أن تؤدى دون إبطاء أو تفريط، فمن حق الرجل على زوجته، طاعته فيما يريد ويرغبه، إلا فيما حرم الله تعالى، بل جعل ذلك شرطا لدخول الجنة، قال ﷺ

"المرأةُ إذا صَلَّتْ خَمسَها، وصامتْ شَهرَها، وأَحصنتْ فَرجَها، وأطاعت بَعلَها؛ فَلْتَدْخُلِ مِنْ أَيِّ أَبوابِ الجنةِ شاءتْ"[1]

فجعلت الطاعة سببا من أربع أسباب لدخول المرأة الجنة، بل كانت طاعتها لزوجها أفضل من الجهاد في سبيل الله.!

وكان رسول الله ﷺ، يجلس وسط أصحابه عندما دخلت عليه أسماء بنت الصحابي يزيد بن السكن بن رافع الأنصاري وقالت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، أنا وافدة النساء إليك، وإني رسول من ورائي من جماعة نساء المسلمين، كلهن يقلن بقولي وعلى مثل رأيي:

إن الله تعالى بعثك إلى الرجال والنساء كافة، فآمنا بك واتبعناك، وإنا معشر النساء مقصورات مُخدرات، قواعد البيوت، وموضع شهوات الرجال، وحاملات أولادكم، وإن الرجال فضلوا بالجماعات وشهود الجنائز، وإذا خرجوا للجهاد حفظنا لهم أموالهم، وربينا أولادهم،

أفنشاركهم في الأجر يا رسول الله؟

فالتفت الرسول ﷺ بوجهه إلى أصحابه، وقال لهم:

"هل سمعتم مقالة امرأة أحسن سؤالاً عن دينها من هذه"؟ فقالوا: بلى يا رسول الله، ما ظننا أن امرأة تهتدي إلى مثل هذا: فالتفت رسول الله ﷺ إليها، فقال: "انصرفي يا أسماء، واعلمي مَنْ وراءك من النساء أن حُسن تبعل إحداكن لزوجها، وطلبها لمرضاته، واتباعها لموافقته تعدل كل ما ذكرت!"

فانصرفت، وهي تهلل وتكبر استبشاراً بما قاله لها رسول الله.

[1] - رواه أبو نعيم في الحلية

وكذلك من حقه أن تكون سبيل عفته وطهارته عن طريق الجماع الذي شرعه الله تعالى.

قالَ رسولُ اللهِ ﷺ:

"إِذَا دعَا الرَّجُلُ امْرأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فلَمْ تَأْتِهِ فَبَات غَضْبانَ عَلَيْهَا؛ لَعَنتهَا الملائكَةُ حَتَّى تُصْبحَ"[1]

وقال أيضا:

" إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امرأته إلى فراشه فلتجب وإن كانت على ظهر قتب"[2]

والقتب هو الرحل الذي يوضع على ظهر الجمل.

وفي حديث آخر:

" إِذَا دَعَا الرَّجُلُ زَوْجتَهُ لِحَاجتِهِ فَلْتَأْتِهِ وإِنْ كَانَتْ عَلَى التَّنُّور"[3]

ثم يبين ﷺ كيف يسخط الله تعالى على من تمنعت على زوجها، إذ يقول:

"والذي نفسي بيديه، ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشها، فتأبى عليه إلا كان الذي في السماء ساخط عليها حتى يرضى عنها"[4]

فالمرأة لا تكون قد أدت حق ربها، حتى تؤدي حق زوجها.

قال ﷺ:

(لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لغير الله، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، والذي نفس محمد بيده، لا تؤدي المرأة حق زوجها كله حتى لو سألها نفسها، وهي على قتب لم تمنعه)[5]

وقال أيضا:

" حق الزوج على زوجته، أن لو لو كانت به قرحة فلحستها ما أدت حقه"[6]

وقال كذلك:

---

[1] - متفق عليه
[2] - رواه البزار
[3] - رواه الترمذي
[4] - أخرجه مسلم
[5] - رواه أحمد عن عبدالله بن أبي أوفى
[6] - رواه الحاكم عن أبي سعيد

" اثنان لا تجاوز صلاتهما رؤوسهما، عبد آبق من مواليه حتى يرجع، وامرأة عصت زوجها حتى ترجع"[1]

بل إنه لا يجوز لها أن تؤدي الصلاة في المسجد وقد أهملت البيت وتركت الزوج، وانصرفت عن واجبها المنوط بها، بحجة العبادة.

ومن حقه أيضا أن تحفظ غيبته وتصون عرضه وتراعي غيرته، فلا تدخل أحدا بيته بغير علمه ولا إذنه.

وأما حق الزوجة على زوجها

كذلك الزوجة مسؤولة من زوجها، ولها حقوق يجب أن تؤدى إليها، كالنفقة وما تقتضيه من إطعام وشراب وكسوة.

عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال في حجة الوداع:

" اتقوا الله في النساء فإنهن عوان عندكم، أخذتموهم بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف"[2]

وعن مُعَاوِيَةَ بنِ حَيْدَةَ قَالَ: قلتُ: يَا رَسُول اللهَّ، مَا حَقُّ زَوْجَةِ أَحَدنَا عَلَيْهِ؟ قَالَ:

"أَن تُطْعمَها إِذَا طَعِمْتَ، وتَكْسُوهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ، وَلا تَضْربِ الْوَجْهَ، وَلا تُقَبِّحْ، وَلا تَهْجُرْ إِلا فِي الْبَيْتِ"[3]

وقوله أيضا:

(كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت)[4]

"ومن حقها كذلك، أن لا يهملها ولا يتغيب عنها، ولا ينصرف عنها من أداء حقوقها في المعاشرة الجنسية، حتى ولو كان ما يشغله عنها عبادة الله تعالى، وقد جعل الله سبحانه من صحيح العبادة الإرواء الجنسي، الذي يعف به الزوج زوجته، وهو حق النفس التي تستقر به لتواصل طاعتها لله تعالى، ثم لزوجها بنفس راضية، أجل من حق الزوجة أن يعفها زوجها

---

[1] - رواه الحاكم عن ابن عمر
[2] - رواه مسلم
[3] رواه أبو داوود وابن ماجة
[4] رواه مسلم وأبو داود

وأن تعفه، فإن قصر الزوج في هذا الحق، هروبا من الدنيا بحذافيرها، فكيف تتصرف الزوجة والحالة هذه؟!"[1]

وقد مر بنا كيف أسرع عمر ﷺ وأصدر أمره أن لا يتغيب جندي عن زوجته أزيد من أربعة أشهر، وذلك حينما سمع المرأة ليلا وهي تشكو فراق زوجها.!

كل هذه الحقوق واجبة للزوجة، لتشعر بسعادتها فتنعكس السعادة على بيتها وزوجها، لقد رفض ﷺ أن يهمل المسلم زوجه، أو يفرط في حق من حقوقها، بحجة الزهد والعبادة.

وآخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء متبذلة، فقال: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاما، فقال له: كل فإني صائم، قال: ما أنا بآكل حتى تأكل فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم فقال له: نم، فنام، ثم ذهب يقوم فقال له: نم. فلما كان من آخر الليل قال سلمان: قم الآن، فصليا جميعا فقال له سلمان:

إن لربك عليك حقا، وإن لنفسك عليك حقا، ولأهلك عليك حقا، فأعط كل ذي حق حقه

فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له فقال النبي ﷺ: صدق سلمان"[2]

عن قتادة قال: "جاءت امرأة إلى عمر فقالت: زوجي يقوم الليل ويصوم النهار، قال: أفتأمريني أن أمنعه قيام الليل وصيام النهار! فانطلقت، ثم عاودت بعد ذلك فقالت له مثل ذلك، فرد عليها مثل قوله الأول، فقال له كعب بن سور: يا أمير المؤمنين! إن لها حقا، قال: وماحقها؟ قال: أحل الله له أربعا، فاجعل واحدة من الأربع لها، في كل أربع ليال ليلة، وفي كل أربعة أيام يوم، فدعا عمر زوجها وأمره أن يبيت معها من كل أربع ليال ليلة، ويفطر من كل أربعة أيام يوما" [3]

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: أتى رسول الله ﷺ أم عبد الله بن عمرو ذات يوم، وكانت امرأة تلطف برسول الله ﷺ فقال: كيف أنت يا أم عبد الله ؟ قالت: بخير، بأبي أنت يا

[1] - من ملامح البيت المسلم- د.محمود عمارة
[2] - رواه البخاري
[3] - كنز العمال

رسول الله وأمي، فكيف أنت؟ قال: " بخير " قالت: عبد الله رجل قد تخلى من الدنيا قال: وكيف ؟ قالت: حرم النوم فلا ينام، ولا يفطر، ولا يطعم اللحم، ولا يؤدي إلى أهله حقهم قال: فأين هو ؟ قالت : خرج ويوشك قال: فإذا رجع فاحبسيه قالت : فخرج رسول الله ﷺ وجاء عبد الله، فأوشك رسول الله ﷺ الرجعة وقال: يا عبد الله بن عمرو ، ما هذا الذي بلغني عنك ؟ قال: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: **بلغني أنك لا تنام ولا تفطر** قال: أردت بذلك الأمن من يوم الفزع الأكبر، وبلغني أنك لا تطعم اللحم قال: أردت بذلك طعاما خيرا منه في الجنة قال: وبلغني أنك لا تؤدي إلى أهلك حقهم قال:

أردت بذلك نساء هن خير منها في الجنة

قال: " يا عبد الله بن عمرو ، إن لك في رسول الله أسوة حسنة ، فرسول الله ﷺ يصوم ويفطر ، وينام ويقوم ، ويأكل اللحم ، ويؤدي إلى أهله حقهم . يا عبد الله،

إن لله - عز وجل - عليك حقا، وإن لبدنك عليك حقا ، وإن لأهلك عليك حقا "[1]

[1] - مجمع الزوائد للهيثمي

حق القوامة.. لمن ولم؟

قال تعالى:

(الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض)

والمراد بالقيام هنا كما يقول نقل صاحب المنار: المراد بالقيام هنا هو الرياسة التي يتصرف فيها المرؤوس بإرادته واختياره، وليس معناها أن يكون المرؤوس مقهورًا مسلوب الإرادة لا يعمل عملاً إلا ما يوجهه إليه رئيسه؛ فإن كون الشخص قيمًا على آخر هو عبارة عن إرشاده والمراقبة عليه في تنفيذ ما يرشده إليه أي ملاحظته في أعماله وتربيته، ومنها حفظ المنزل وعدم مفارقته ولو لنحو زيارة أولي القربى إلا في الأوقات والأحوال التي يأذن بها الرجل ويرضى"[1]

ولم تكن هذه القوامة اعتباطا، ولكنها مردودة إلى سببين،

فطري **وكسبي.**

وذلك قوله تعالى:

"بما فضل الله بعضهم على بعض"

"لم يقل في الآية الكريمة:

بما فضل الله الذكر على الأنثى مثلا، إنما هما كيان واحد يفضل بعضه بعضا، ناشئا عن طبيعة التكوين، فكما أنه لا يضير اليد إذا قيل: إن الرأس أفضل منها، كذلك لا يضير المرأة إذا قيل: إن الرجل أفضل منها بما يملك من العقل والقدرة، والحزم في اتخاذ القرار، وهي قوامة المصلحة المزدوجة، التي تعيش في ظل زوجها مكفولة الرزق والأمن معا"[2]

* فالمنظور الإسلامي ينظر للرجل والمرأة على أنهما كيان واحد لا ينفصم عراه، أي يكمل أحدهما الآخر مع احتفاظ كل منهما بخصائصه التي اختصه الله بها.

---

[1] - تفسير المنار

[2] - نحو أسرة بلا مشكلات –د. محمود عمارة

* ومن الأخطاء الكبيرة التي أشيعت في هذا العصر، أن تعتقد المرأة أنها تستطيع أن تخلف الرجل في أي عمل يقدر عليه، دون الالتفات للقدرة والخاصية التي أنيط بها، وصارت من سماته.

* خطأ كبير أن تقحم المرأة نفسها في حياة الرجل، معتقدة أن لها ما للرجل من قدرات ومواهب تؤهلها من القيام بأي عمل أكدت الطبيعة أنه من خصائص الرجل، فإن للمرأة طبيعة تباين طبيعة الرجل، ولها وجدان يخالف وجدانه، ومن ثم فالرجل له أعمال لا تقدر المرأة على القيام بها، أو أن تحقق مقصودها، صحيح أن الإسلام رفع من قدرة المرأة، واحترام وجودها، بعد أن كانت مخلوقا مهينا، تزدريه كثير من الأديان والمذاهب والمجتمعات، وينظر إليه أهل الجاهلية، على أنه عار يجب محوه وبتره من الوجود.

قال تعالى:

" ومن يعمل من الصالحات من ذكر وأنثى"

وقال تعالى:

" والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر"[1]

فهي تأمر وتنهى كالرجل تماما، بل كانت أول صيحة من الداعي الأول ﷺ، مؤذنة باحترام المرأة، إذ لما نزلت " وأنذر عشيرتك الأقربين" صعد الصفا وقال:

"يا مَعْشَرَ قريشٍ! اشْتَرُوا أنفسَكم من الله، لا أُغْنِي عنكم من الله شيئًا، يا بني عبدِ مَنَافٍ! اشْتَرُوا أنفسَكم من الله، لا أُغْنِي عنكم من الله شيئًا، يا عباسُ بنَ عبدِ المُطَّلِبِ! لا أُغْنِي عنكَ من الله شيئًا، يا صفيةُ عَمَّةَ رسولِ الله! لا أُغْنِي عنكِ من الله شيئًا، يا فاطمةُ بنتَ مُحَمَّدٍ! سَلِينِي من مالي ما شِئْتِ لا أُغْنِي عنكِ من الله شيئًا"

[1] - سورة التوبة: 71

وهذا التكريم ليس معناه أن تقوم المرأة مقام الرجل، فإن للرجل خصائصه التي يستحيل أن تخوض المرأة غمارها، لأن طبيعتها ومقامها يرفضان ذلك، ولو حدث لتضررت كثيرا وخرجت عن المألوف الذي لا ينسجم مع طبيعتها.

وفي جنون المساواة المطلقة بين الرجل والمرأة في ميادين الأعمال، وقعت قصة تستحق التسجيل، فقد رأى البعض تشغيل الفتيات، محصلات في الحافلات العامة والباصات في القاهرة التي تغص بحشود من البشر يزحم بعضها بعضا، فلا يكاد الرجل الجلد القوي ليجد طريقا بينهما، فكيف بالفتاة؟!

وعاشت التجربة يومًا ولم تتكرر.!

ونشرت منظمة الصحة العالمية شرق البحر المتوسط في تقرير سابق لها: في جميع الأحوال لا يليق بالمرأة أن تعمل في المجالات التي لا تلائم طبيعتها، وأن تدخل في أي ضرب من ضروب الصناعة والحرف المضنية، فالمجالات التي تحسنها المرأة وتتناسب معها كثيرة ومتعددة، كميدان التعليم، والطب والتمريض، والرعاية الاجتماعية والكتابة والنشر، وبعض الوظائف غير المرهقة، وتستطيع فوق كل ذلك أن تغشى الأسواق في حشمة ووقار، فتبيع وتبتاع،

أما أن تعمل المرأة كل أعمال الرجال، كأن تكون شرطية وميكانيكية، وعاملة في المصانع، ومنظمة في الشوارع، وسائقة للعربات، وأدوات النقل وما شابه ذلك، فلا يليق بها.

ولا يجوز أن تزاوله، وقلما تساوي الرجال في هذا المجال، ومن المفيد جدًا، أن نشير إلى الدراسة القديمة، التي نشرتها فيما سبق جريدة (الهيرالدتريبيون الدولية) في عددها رقم 32650 عام 1988م فقد قامت الدكتورة روزفريش أستاذ الصحة العامة بجامعة هارفارد، بدراسة أجرتها على 5398 امرأة، تتراوح أعمارهن ما بين 21-80 عاما، وتقدمت بنتائج هذا البحث إلى الاجتماع السنوي للجمعية الأمريكية لتقدم العلوم، وخلصت في دراستها إلى النتائج التالية:

تصاب اللاعبات الرياضيات النشيطات باضطراب في الدورة الطمثية، ويصبحن غير مخصبات، طالما يقمن بممارسة الرياضية، ويمكن عودة الخصوبة فيهن لوضعها الطبيعي، بتوقف الممارسة الرياضية.

وأضافت الباحثة نصيحتها إلى النساء قائلة: لا يمكن للمرأة أن تعمل كل شيء، بمقدور كل واحدة منكن أن تصبح نجمة رياضية أو لاعبة أولمبياد شهيرة، ولكنها إذا رغبت في إنجاب طفل، فإن عليها أن تتوقف عن اللعب، ذلك لأن المستوى الأدنى من التمارين يمكن أن يكون، له عواقب ضارة على الجهاز التناسلي في المرأة.

ولقد أصدرت الدراسة: أن 2622 امرأة ممن كن يمارسن الألعاب الرياضية قد بدت عليهن أعراض سرطان الثدي أو الداء السكري، أو سرطان الجهاز التناسلي، في مقابل القسم الاخر من النساء، وعدده 2776 اللواتي لم تظهر عليهن هذه الأعراض.

بينت دراسة جامعة هارفارد، إضافة إلى دراسة أخرى أجرتها جامعة ألبرتا، أن الأعمال النشيطة التي تمارسها المرأة، تؤثر جدًا في انتاج الاسترجينات التي تتحكم في الانجاب لدى المرأة.

وأشارت هذه الدراسة مع أخرى مماثلة أجرتها جامعة كندية، أن النساء اللواتي يمارسن الاعمال المجهدة، يصبن باضطراب الاخصاب، حتى لو استمر الطمث لديهن على وضعه النظامي.

أظن بعد هذه التجارب والاستقراءات أن الأفضل للمرأة الوقوف عند حدودها الفطرية، واليأس من نشدان المساواة المطلقة مع الرجال، بهذا الكدح المضني وما يعقبه من آلام."[1]

[1] - قضايا المرأة للشيخ محمد الغزالي

الزوجة الصالحة وتربية الأبناء

سأل رجل أحد الصالحين العارفين فقال له:

أريد أن أربي ولدي فبم تنصحني؟

قال كم عمره؟

قال سنة..

فقال له: فاتك القطار، فقال الرجل ولم؟ فقال الشيخ:

إن تربية الطفل تبدأ قبل أن تتزوج أمه.!

أي باختيار المرأة الصالحة، التي تستطيع أن تربي ولدك على الخلق والفضيلة والمبادئ.

أما إن كانت فاسدة الطبع والخصال، وليس لها حظ من الدين، فكيف تقيم نشأ مستقيما فاضلا عفيفا؟!

قال الشاعر:

وليس النبت ينبت في جنان ** كمثل النبت ينبت في الفلاة
ولا يرتجى لأطفال كمال ** إذا ارتضعن ثدي الناقصات

إن للأم تأثير كبير ودور عظيم في صياغة أبنائها وتشكيل عقولهم ومزاجهم.

بل إنني لا أبالغ حينما أقول: إن لها أثر في مستقبلهم بما تزرع فيهم من طبائع ونوازع، وبين يدي مثلا لأم قد استطاعت بتوجيهها وإرشادها الذي ينبع من تدينها وخلقها، أن ترشد ولدها لمستقبله الذي ينتظره، ليصير عبقريا من عباقرة الإسلام.

يحكى أن الإمام مالك قد رأى لنفسه رأيا في مستهل حياته، ولو أنه قام بتنفيذه، لحرم العلم والدين شيخا من شيوخه، وإماما من أئمته، ذلك أنه قد ارتأى له أن في باكر صباه أن يشتغل بالغناء، ولعله قد أنس في نفسه صوتا رخيما، وأداء جذابا، ولكن أمه كانت سيدة فاضلة، سارعت إلى تقبيح الفكرة، موهمة إياه أنه قبيح المنظر، والناس لا يحبون سماع المغني

القبيح.. إذا لم يكن جميل المحيا، وضيء القسمات، ونصحته بالإقبال على الفقه، فأذعن لرأيها، وأقبل على الفقه والحديث، ذلك الإقبال الذي جعل منه إماما جليلا من أئمة الإسلام.

لقد قامت الأم الصالحة بدورها أكمل قيام، وأرشدت ولدها لطريق الحق لتزيحه عن طريق المجون.

لقد كانت نصيحتها مهددة بالسقوط لو أن ولدها شق طريقه إلى المرآة يتحسس رأي أمه فيه، فما كان مالك قبيح الوجه رديئه، وإنما كان جميل المحيا، مكتمل البنية، أبيض اللون إلى شقرة، ولكن صلاح الأم ورجاءها في صلاح الإسلام بنصيحتها الغالية جعل منه إماما عظيماً،

ومجتهداً فريداً، بل صنعت بإرشادها مذهباً بأكمله يرشد الناس ويعلمهم أصول الإسلام.

ويا ليت هذا الصلاح العظيم، والذي كمن في نفس أم مالك يحل بأمهات العصر، فما أحوج أبنائنا اليوم لأمهاتٍ صالحات، يصنعن منهم أبطالاً عظماء، كما صنعت تلك الأم العظيمة من ولدها الصغير، ولنتعمق في تأملنا للموقف لنستخلص ما فيه من دروس جليلة ونقاط رشيدة فريدة:

أولا: إن الأم الصالحة حضّت ولدها على طريق الحق والخير، فلم تنظر للدنيا وزينتها وما تدره عليها وعلى ولدها من مال وشهره، فما أسهل أن ينحرف الفقراء وذوو الحاجة أمام زيف الشهوات، لكن لسانها نطق بما استقر في عقلها وهو ما يبلغها وولدها لبر الأمان.

ثانياً: لم تستخدم اللين حينما قلعت جذور تلك الرغبة من أعماقها، فكانت طريقتها جافة مؤلمة، قد تحزنه وتفجعه وتسبب له ضيقاً كبيراً أو حسرة، حينما قالت: «إن وجهك قبيح، والمغنى لابد أن يكون جميل المحيا وضيء القسمات، والناس لا يحبون المغنى قبيح المنظر»، وهو جفاء يخفي حبًا كبيرًا ورغبة في مصلحته.

ثالثاً: قد يظن الآباء والأمهات أن الطعام والكسوة هما المسئولية الكبرى تجاه الأبناء، وهذا أعظم خطأ وأفدح تصور، فالتربية الصالحة، والسلوك الأخلاقي، وما يُجبل عليه الطفل من سمات الخير، أعظم مسؤولية، منك نحو ولدك، بل أفضل عطية تقدمها له فى حياته، لتجعل منه إنساناً صالحاً لمجتمعه وأمته، وهو ما فعلته أم مالك.

رابعاً: إنها لم تقل له: هل هناك مغنٍ قبيح المنظر فقط لتفت من عزمه ورغبته فى الغناء ولكنها قالت بجوار ذلك: «إن الناس لا يحبون المغني قبيح المنظر»، وهي بهذا تشدد عليه الأمر وتزيد من صعوبته، وكان من الممكن أن يسير في طريقه غير عابئ بقبحه أو جماله، فالمهم صوته لا شكله، ولكنها قذفته بكلماتها الحاسمة وهي) لتكون حجرة عثرة. واستجاب مالك لطلب أمه وانصاع لنصحها فترك الغناء وطلب الفقه ليسير إلى قدره المنتظر ليكون عبقرياً عظيماً بفضل الأم الصالحة، وأخلاقها الراشدة وتربيتها السديدة.

يقول الإمام مالك: كانت أمي تجهز عمامتي وأنا صغير قبل ذهابي لحِلق العلم، فتقول لي: يا مالك، خذ من شيخك الأدب قبل العلم.

* وهذا سفيان الثوري أمير المؤمنين في الحديث وأحد أعلام المسلمين وعظمائهم، فمن سيره يا ترى لهذه الغاية ومكنه من هذه المكانة؟ إنها أمه الصالحة التي قالت له:

يا بني اطلب العلم وأنا أكفيك بمغزلي.

تريد أن لا تحوجه إلى العمل ليترك العلم وطلبه، يا بني إذا كتبت عشرة أحرف، انظر هل ترى في نفسك زيادة، فإن لم تر فيه زيادة فاعلم أنه لا ينفعك.

* وهذا ابن عربي الصوفي الشهير، وأمه نور وكانت امرأة صالحة تحبه وتحثه على ارتياد طريق الصلاح واتباع سبيل الهدى، ولم تجزع حينما ترك ولدها الدنيا وسلك طريق الزهادة والتقوى، وحينما ألزم نفسه خدمة العارفة بالله فاطمة بنت ابن المثنى القرطبي بأشبيلية، كانت أمه تزوره عندها، فتقول لها فاطمة الزاهدة: يا نور هذا ابني ولدي وهو أبوك، فبريه ولا تعقيه، فلا تجد الأم في نفسها غضاضة مما تسمع، وتتلقاه بقبول حسن.

الحق أقوى من العاطفة

لقد مر بنا الحديث عن ذات النطاقين أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، وكيف كان صبرها الكبير على مشاق بيتها وخدمة زوجها، وكانت من أعظم النساء وأعظم مثال يضرب للمرأة الهمامة التي تعين زوجها على مشاق الحياة، ومثل أسماء في صبرها وصلاحها وثباتها، هي المرأة التي تستطيع أن تنجب جيلا من الابطال، وذرية من النوابغ، يحملون راية الدين وهموم الأمة.

لقد كانت أمًا لعبد الله بن الزبير، الذي صارع الأمويين، ولم تبال نفسه بجمعهم وحصارهم، أو ينهد عزمه فيستسلم ويرضى بالذل والهوان. لقد ربت أسماء ولدها على نصرة الحق حتى ولو كلفه ذلك حياته، انظر إليها وقد جاءها ولدها شاكيا مستشيرا بعد أن حاصروه، وتخلى عنه الجميع فقال: يا أماه؛ خذلني الناس حتى ولدى وأهلي، فلم يبق معي إلى اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من ساعة، والقوم يعطونني ما أردت الدنيا، فما قولك؟ فقالت: أنت والله يا بنى أعلم بنفسك. إن كنت تعلم أنك على حقٍ وإليه تدعو، فامضِ له، فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكن من رقبتك، يتلعب بها غلمان بنى أميه، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت، أهلكت نفسك وأهلكت من قتل معك. وإن قلت: كنت على حق، فلما وهن أصحابي ضعفت، فليس هذا من فعل الأحرار، ولا أهل الدين، وكم خلودك فى الدنيا؟ القتل أحسن،

والله لضربة بالسيف في عز أحب إلى من ضربة بالسوط في ذل

قال: إني أخاف إن قتلوني أن يمثلوا بي. قالت: إن الشاة لا يضيرها سلخها بعد ذبحها، فدنا منها وقبل رأسها، وقال: هذا والله رأى والذي قمت به داعياً إلى يومي هذا، ما ركنت إلى الدنيا، ولا أحببت الحياة فيها، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله أن تستحل حرمة، ولكنني أحببت أن أعلم رأيك فزدتني بصيرة مع بصيرتي،

فانظري يا أماه فإنى مقتول من يومي هذا، فلا يشتد حزنك، وسلمى لأمر الله، فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكر، ولا عمل بفاحشة، ولم يجر فى حكم الله، ولم يغدر فى أمان، ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد، ولم يبلغني ظلم من عمالي فرضيت به، بل أنكرته، ولم يكن شيء آثر عندى من رضا ربى، اللهم لا أقول هذا تذكية منى لنفسي أنت أعلم بى

ولكن أقوله تعزية لأمي لتسلو عنى. فقالت أمه: إني لأرجو من الله أن يكون عزائي فيك حسناً، إن تقدمتني، وإن تقدمتك ففي نفسي جرح، حتى أنظر إلام يصير أمرك. قال: يا أماه جزاك الله خيراً، فلا تدعين الدعاء لي قبل وبعد، فقالت: لا أدعه أبداً، فمن قتل على باطلٍ فقد قتلت على حق، ثم قالت: اللهم ارحم ذلك القيام في الليل الطويل وذلك النحيب والظمأ في

هواجر المدينة ومكة، وبره بأبيه وبي، اللهم قد سلمته لأمرك فيه، ورضيت بما قضيت فأثبنني في عبد الله ثواب الصابرين الشاكرين. ثم ودعها وخرج.

لم تكن أسماء غافلة عن قوة بني أمية وبطشهم، ولم تكن تريد أن يتسيد ولدها في الدنيا ليصبح الرجل الأول فيها، ولم تسيطر عليها عاطفة الأمومة لتمنع ولدها أن يمضى لما فيه حتفه، لقد ربته على العزة والإيمان، فهو حفيد أبى بكر صفى رسول ﷺ وابن الزبير حواريّ النبي ﷺ وابن عمته. لك الله يا أسماء، تدفعين بولدك ليكون فداءً لمبادئه وتجعلين شعارك «والله لضربة بالسيف في عز أحب من ضربة بالسوط فى ذل». ومن أين جاء عبد الله بقوله: «ما ركنت إلى الدنيا، ولا أحببت الحياة فيها، وما دعاني للخروج إلا الغضب لله أن تستحل حرمة».

لقد جاءته هذه المبادئ من تربية أمه أسماء، ومن عزة أسماء، ومن صلاح أسماء فهل لأمهات المسلمين أن يعلمن أولادهن، ويربينهن على نصرة الحق، والغضب لله، والانتصار للمبادئ كما علمت أسماء. إن ذلك لا يكون إلا على يد امرأة صالحة، ليخرج في المسلمين مثل عبد الله ابن الزبير.

يقول شيخنا القرضاوي:

«والأم التي عنى بها الإسلام كل هذه العناية، عليها واجب أن تحسن تربية أبنائها فتغرس فيهم الفضائل، وتبغضهم في الرذائل، وتعودهم طاعة الله، وتشجعهم على نصرة الحق، ولا تثبطهم عن الجهاد استجابة لعاطفة الأمومة في صدرها، بل تغلب نداء الحق على نداء العاطفة» وهكذا كانت أسماء رضي الله عنها.

وإلى هنا تنتهي هذه الصفحات، فأسأل الله أن تكون خالصة لوجه تعالى وأن تحقق غايتها لكل طالب للهداية وحائر في السؤال.

فهرس الكتاب

م	الموضوع	ص
1-	مقدمة	4
2-	تمهيد	6
3-	الفصل الأول	8
4-	مقصود الزواج في الإسلام	9
5-	التدين أساس الاختيار	14
6-	الاختيار وإرث الأخلاق	24
7-	الاختيار بين الزيف والحقيقة	27
8-	الاختيار ومؤونة الحياة	30
9-	الاختيار ومسؤولية الآباء	40
10-	الفصل الثاني	51
11-	النبي ﷺ في بيته	52
12-	الوفاء بين الزوجين	56
13-	الصبر على الزوجة	63
14-	حقوق بين الطرفين	70
15-	حق القوامة.. لمن ولم؟	75
16-	الزوجة الصالحة وتربية الأبناء	79
17-	الفهرس	84

نحن نريد جيلا ينشأ بين أحضان أبوين مسلمين، يؤمنان ويدركان أن حياتهما ليست للذة والمتعة، بقدر ما هي حياة تعمل على تأصيل معنى الإسلام في المجتمع، وإحياء صورة الأسرة المسلمة من خلال التربية الراشدة والسلوك القويم، ولهذا كانت صفحات هذه الرسالة تتحدث عن الزواج بين حسن الاختيار وعشرة الأخيار، وكونه اللبنة الأولى في تكوين البيت المسلم، والعامل الأكبر في تحقيق هدفه كبيت سعيد، ترفرف عليه أجنحة السعادة، وتشمله ظلال العشرة الطيبة.